مكتبة مختصرات كتب الإمام ابن القيم لعامة المسلمين ٤

مختارات من

كتاب الصلاة

للإمام ابن القيم

ملحق به مواضع من بعض كتبه الأخرى





اختارها

أ. د. أحمد بن عثمان بن أحمد المزيد

أستاذ الدراسات الإسلامية - جامعة الملك سعود سابقًا

4 18

مُختاراتٌ مِن

كتابِ الصلاةِ

للإمامِ ابنِ القيِّمِ

ⓗ أحمد بن عثمـان المزيد، ١٤٤٧هـ.
فهرسة مكتبة الملك فهـد الوطنية أثنـاء النشر
المزيد، أحمد بن عثمـان
مختارات من كتاب الصلاة للإمام ابن القيم./ أحمد بن عثمان المزيد
-ط٢. - الرياض، ١٤٤٧هـ.
٨٦ص ؛ ١٧ x ٢٤ سم.

رقـــم الإيـــداع : ١٤٤٧ / ٤٧٣٦
ردمك : ٥ - ٩٦٥١ - ٠٥ -٦٠٣ - ٩٧٨

الطَّبْعَةُ الثَّانِيَة
(١٤٤٧هـ - ٢٠٢٦م)



مكتبة مختصرات كتب الإمام ابن القيم لعامة المسلمين (٤)

مختارات من

كتاب الصلاة

للإمام ابن القيم

ملحق به مواضع من بعض كتبه الأخرى

للإمام أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب

ابن قيم الجوزية

٦٩١-٧٥١هـ

اختارها

أ.د. أحمد بن عثمان بن أحمد المزيد

أستاذ الدراسات الإسلامية - جامعة الملك سعود سابقًا



إهـــــدَاءُ

إلى الـوَالِـدِ الشَّـيْخ

عُثْمَـانَ بْنِ أَحْمَدَ المَزْيَد رَحِمَهُ اللهُ وأَسْكَنَـهُ الفِرْدَوْس الْأَعْلَى مِنَ الْجَنَّـةِ.

وإِلَى الــوَالِـدَةِ حِـصَّـةَ بِنْـتِ حَمَــدٍ المَــزْيَـد حَفِظَهَا اللهُ،

وإِلَى زَوْجَتِي وذُرِّيَّتِي أَسْعَدَهُمُ اللهُ جَمِيعًا فِي الدُّنْيَا والْآخِرَةِ.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام علىٰ نبينا محمدٍ رسول الله ﷺ، وعلىٰ آله وصحبه، ومن اقتفىٰ أثره، وعمل بهديه، واستن بسنته، **أما بعد:**

فإنَّ الصلاةَ رأسُ الأمرِ وعمودُه، يستشعرُ فيها المسلمُ نعمةَ اتصالِه بربِّه، ولذَّةَ مناجاتِه له، فهي زادُه إلىٰ الآخرةِ؛ وعونُه علىٰ مهمَّاتِ حياتِه، تنهاه في الدُّنيا عن الفحشاءِ والمنكرِ، وتكونُ له نورًا وبرهانًا ونجاةً يومَ القيامة؛ أمرتِ الشريعةُ بإقامتِها في وقتها المشروع، وأدائها أحسنَ الأداءِ، بإخلاصٍ وخشوعٍ وخضوعٍ، علىٰ نحوِ إقامةِ النبيِّ ﷺ لها؛ فهو القائل: «**صَلُّوا كما رَأَيْتُمُوني أُصَلِّي**» [البخاري (٧٢٤٦)، ومسلم (٦٧٤)]، ولتحقيقِ ذلك ينبغي تعلُّمُ أحكامِها، وفِقْهُ معانيها، ومعرفةُ آثارِها وثمراتِها.

وقد حوىٰ الكتابُ الذي بين أيدينا اختياراتٍ من «**كتاب الصلاة**» للإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ونُبَذٍ في الصلاة، وحِكَمها، وهيئة أدائها، ومعاني أذكارها، نخلناها من كتابَيْ «**الكلامُ علىٰ مَسْأَلَةِ السَّمَاع**»، و«**شفاءُ العَلِيل**» لابن القيم أيضًا.

والهدف الأساس من ذلك التوجيهُ لكيفيةِ أداءِ الصلاةِ وفق الهدي النبويِّ، وبيانُ أهميتِها وثمراتِها، ومقاصدِ الأعمالِ والأذكارِ فيها، وما تقتضيه من العبوديةِ للهِ تعالىٰ، والتنبيهُ علىٰ محاسنِ الشريعةِ في تشريعِ هذه الفريضةِ العظيمةِ؛ فيؤديها المسلمُ بخشوعٍ؛ محبةً للهِ وإجلالًا له، ورغبةً في ثوابِه، وخوفًا من عقابه؛ مستحضرًا قربَ ربِّه منه؛ فتسكنُ نفسُه، ويطمئنُّ قلبُه، وتكونُ الصلاةُ منشرحَ صدرِه، و قرَّة عينِه.

وقد بسط الإمام ابنُ القيمِ هذه المسائلَ وجلَّاها مستدلًّا بالكتاب والسنة، ومبيِّنًا المعاني ملخَّصةً مركّزةً؛ ليفيد منها طالبُ العلمِ وعمومُ المسلمين علىٰ السَّواء.

ولتعظيمِ الإفادةِ من هذا الكتابِ المباركِ وتقريبِه وتيسيرِه للقرَّاءِ فقد اختصرناه

وسلكنا في ذلك الآتي:

١- الإبقاءُ علىٰ ألفاظِ المؤلِّفِ دون زيادةٍ أو تصرُّفٍ.

٢- الاقتصارُ علىٰ صُلبِ موضوعاتِ الكتابِ، وما يحتاجه عامة المسلمين فقط.

٣- إبرازُ فوائدِ الكتابِ، والتخريجُ المختصرِ للأحاديثِ.

٤- الاعتناءُ بالإخراج الفنِّيِّ للكتابِ وتنسيقِه؛ لتسهُلَ قراءتُه ويقرُبَ مقصودُه.

٥- الاعتمادُ علىٰ أفضلِ الطبعاتِ للكتابِ، وهي طبعةُ عطاءاتِ العلمِ، بتحقيق: عَدْنَان بن صَفَاخَان البُخاري لـ «كتاب الصلاة»، وتحقيق: محمد عُزير شمس لكتاب «الكلامُ علىٰ مَسْأَلةِ السَّمَاع»، وتحقيق: زاهر بن سالم بَلْفَقيه لكتاب «شِفَاءُ العَليل».

٦- طبعُ الكتابِ طبعاتٍ غيرَ ربحيَّةٍ، وجَعْلُ حقوقِه لكلِّ مسلمٍ.

واللهَ نسألُ أنْ ينفعَ بهذا الكتاب كما نفع بأصوله، وأنْ يكتبَ لنا ولقارئه الأجرَ الجزيلَ، والشكرُ لمن يشاركنا نشرَ هذا العلمِ النافعِ؛ من آباءٍ وأمهاتٍ بين أسرِهم، وأئمةٍ في مساجدِهم، ولمن يسهمُ في ترجمته لأهم اللغات العالمية، أو تحويله لمحتوىٰ صوتيٍّ ومرئيٍّ وتعليميٍّ، ونشرِه في الوسائطِ الرقميَّةِ، وقنواتِ الإعلامِ الجديدِ، وآخرُ دعوانا أنْ الحمدُ للهِ ربِّ العالمين.

أ.د. أحمد بن عثمان بن أحمد المزيد

أستاذ الدراسات الإسلامية - جامعة الملك سعود سابقًا

(Mokhtsrat100@gmail.com)

بسم الله الرحمن الرحيم

مختارات من كتاب الصلاة

الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أنْ لا إله إلَّا الله، وأشهد أنَّ محمدًا عبده ورسوله، صلَّىٰ الله عليه وعلىٰ آله وأصحابه وأزواجه، وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

لا يختلف المسلمون أنَّ تركَ الصَّلاةِ المفروضةِ عمدًا من أعظمِ الذُّنُوبِ، وأكبرِ الكبائرِ، وأنَّ إثمَهُ عند الله أعظمُ من إثمِ قتْلِ النَّفسِ، وأخْذِ الأموالِ، ومن إثْمِ الزِّنا، والسَّرقةِ، وشرْبِ الخمْرِ، وأنَّه متعرِّضٌ لعقوبةِ اللهِ وسخطِه وخِزْيه في الدُّنيا والآخرة[(١)].

فصلٌ [حكم ترك شرائط الوضوء أو أركان الصلاة]

وحُكْمُ تركِ الوضوء، والغُسْلِ من الجنابة، واستقبالِ القبلة، وسترِ العورةِ حُكْمُ تاركِ الصَّلاةِ، وكذلك حكمُ ترْكِ القيامِ للقادرِ عليه هو كتركِ الصَّلاةِ، وكذلك تركِ الركوعِ والسجودِ[(٢)].

فصلٌ في حكم تارك الجمعة

روىٰ مسلمٌ في «صحيحه»[(٣)] من حديث ابن مسعود: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال لقوم يتخلَّفُون عن الجمعة: «**لقد همَمْت أنْ آمرَ رجلًا يصلِّي بالنَّاس، ثم أحرِّق علىٰ**

(١) (ص: ٥).
(٢) (ص:٢٩)
(٣) حديث (٦٥٢).

رجالٍ يتخلَّفون عن الجمعة بيوتهم».

وعن أبي هريرة وابن عمر أنَّهما سمعا رسول الله ﷺ يقول علىٰ أعواد مِنبره: **«لينتهينَّ أقوامٌ عن وَدْعِهم الجُمُعاتِ، أو ليختمنَّ اللهُ علىٰ قلوبِهم، ثم ليكونُنَّ من الغافلين»**، رواه مسلم في "صحيحه"[(١)].

وفي «السُّنن» كلِّها[(٢)]، من حديث أبي الجَعْد الضَّمْري -وله صحبةٌ-: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: **«مَنْ ترك ثلاث جُمَعٍ تهاونًا طبع الله علىٰ قلبه»**. ورواه الإمام أحمد من حديث جابرٍ[(٣)]. [(٤)].

فصلٌ: هل تحبط الأعمال بترك الصَّلاة أم لا؟

* أمَّا تركها بالكليَّة فإنَّه لا يُقْبَل معه عملٌ، كما لا يُقْبَل مع الشِّرك عملٌ؛ فإنَّ الصَّلاة عمودُ الإسلامِ، كما صحَّ عن النَّبيِّ ﷺ[(٥)]، وسائر الشَّرائع كالأطنابِ والأوتادِ ونحوهِا، وإذا لم يكن للفُسْطاط عمودٌ لم يُنْتَفع بشيءٍ من أجزائه.

فقبول سائر الأعمال موقوفٌ علىٰ قبول الصلاة، فإذا رُدَّت رُدَّت عليه سائر الأعمال.

* وأمَّا تركها أحيانًا فقد روىٰ البخاري في «صحيحه»[(٦)]، من حديث بريدة قال: قال رسول الله ﷺ: **«بكِّرُوا بصلاةِ العصرِ؛ فإنَّ مَنْ ترك صلاة العصر فقد حَبِط عملُه»**.

---

(١) حديث (٨٦٥).

(٢) أخرجه أبو داود (١٠٥٢)، والنَّسائي (١٣٧٠)، والترمذي (٥٠٠)، وابن ماجه (١١٢٥).

(٣) المسند (٦/ ٣٠٨٠).

(٤) (ص:٣٠-٣١)

(٥) أخرجه الترمذي (٢٦١٦)، وأحمد (٥/ ٢٣٧).

(٦) حديث (٥٥٣).

والذي يظهر في الحديث -والله أعلم بمراد رسوله- أنَّ التَّرك نوعان:

- تركٌ كُلِّيٌ، لا يصلِّيْها أبدًا؛ فهذا يُحبِط العمل جميعه.
- وتركٌ معيَّنٌ، في يوم معيَّنٍ؛ فهذا يُحبِط عمل ذلك اليوم. فالحبوط العامُّ في مقابلة التَّرك العام، والحبوط المعيَّن في مقابلة التَّرك المعيَّن.

وتخصيص العصر بالذِّكر لشرفها من بين الصَّلوات؛ ولهذا كانت هي الصَّلاة الوسطىٰ بنصِّ رسول الله ﷺ الصَّحيح الصَّريح[(١)]. ولهذا خصَّها بالذِّكر في الحديث الآخر، وهو قوله: «**الذي تفوته صلاة العصر فكأنَّما وُتِر أهلَه ومالَه**»[(٢)]. أي: فكأنَّما سُلِبَ أهلَه ومالَه، فأصبح بلا أهلٍ ولا مالٍ[(٣)].

فصْلٌ: [نوعا الحبوط]:

والحبوط نوعان: عامٌّ، وخاصٌّ.

❋ **فالعام**: حبوط الحسنات كلِّها بالرِّدَّة، والسَّيِّئات كلِّها بالتَّوبة.

❋ **والخاص**: حبوط السيئات والحسنات بعضها ببعضٍ، وهذا حبوطٌ مقيَّدٌ جزئيٌّ[(٤)].

فصْلٌ:

هل تُقْبَل صلاة اللَّيل بالنَّهار، وصلاة النَّهار باللَّيل، أم لا؟

فهذه المسألة لها صورتان:

---

(١) أخرجه البخاري (٢٩٣١)، ومسلم (٦٢٧).
(٢) أخرجه البخاري (٥٥٢)، ومسلم (٦٢٦).
(٣) (ص:١٠٧، ١٠٩).
(٤) (ص:١١٢).

* **إحداهما**: تُقْبَل فيها بالنَّص والإجماع، وهي: ما إذا فاتته صلاة النَّهار بنومٍ أو نسيانٍ فصلَّاها باللَّيل، وعكسه.

كما ثبت في «الصَّحيحين»(١)، من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**مَنْ نسِي صلاةً أو نام عنها فكفَّارتها أنْ يصلِّيها إذا ذَكَرها**»، واللَّفظ لمسلمٍ.

وروىٰ مسلمٌ(٢)، عنه -أيضًا- قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا رَقَد أحدكم عن الصَّلاة أو غَفَل عنها فلْيُصلِّها إذا ذَكَرها؛ فإنَّ الله يقول:** ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ١٤﴾ [طه:١٤]».

وفي «صحيح مسلم»(٣)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنَّ رسول الله ﷺ حين قَفَل من غزوة خيبر سار ليلةً، حتىٰ إذا أدْرَكَه الكَرَىٰ عَرَّس، وقال لبلال: «**اكْلأْ لنا اللَّيل**»، فصلَّىٰ بلالٌ ما قُدِّر له، ونام رسول الله ﷺ وأصحابه.

فلمَّا تقارب الفجر استند بلالٌ إلىٰ راحلته يُوَاجِه الفجر، فغَلَبَت بلالًا عيناه، وهو مستندٌ إلىٰ راحلته، فلم يستيقظ رسولُ الله ﷺ، ولا بلالٌ، ولا أحدٌ من أصحابه حتىٰ ضرَبَتهم الشمس، فكان رسولُ الله ﷺ أوَّلهم استيقاظًا، ففزع رسولُ اللهِ ﷺ، فقال: «**أي بلال**»!

فقال بلالٌ: أَخَذَ بنفسي الذي أَخَذَ بنفسك، بأبي أنت وأمي يا رسول الله ﷺ، قال: «**اقتادوا**»، فاقتادوا رواحلهم شيئًا، ثم توضَّأ رسول الله ﷺ، وأمر بلالًا فأقام الصَّلاة، فصلَّىٰ بهم الصُّبح، فلمَّا قضىٰ الصَّلاة قال: «**من نسِي الصلاةَ فليصلِّها إذا ذَكَرها؛ فإنَّ الله قال:** ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ١٤﴾[طه:١٤]».

---

(١) أخرجه البخاري (٥٩٧)، ومسلم (٦٨٤).
(٢) حديث (٦٨٤).
(٣) حديث (٦٨٠).

وفي «الصَّحيحين»[(١)]، من حديث عمران بن حصين، نحو هذه القصَّة.

وفي «صحيح مسلم»[(٢)]، عن أبي قتادة قال: ذَكَرُوا للنَّبيِّ ﷺ نومَهم عن الصلاة قال: «**إنَّه ليس في النَّوم تفريطٌ، إنَّما التَّفريطُ علىٰ مَن لم يصلِّ الصَّلاة حتىٰ يجيء وقت الأخرىٰ**».

وفي «مسند الإمام أحمد»[(٣)] من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: أقبل النَّبيُّ ﷺ من الحديبية ليلًا، فنزلنا منزلًا دَهَاسًا[(٤)] من الأرض، فقال: «**مَن يكلؤنا؟**»، فقال بلالٌ: أنا، قال: «**إذًا تنام**»، قال: «لا». فنام حتىٰ طلعت الشمس، فاستيقظ فلانٌ وفلانٌ، فيهم عمرُ، فقال: أَهْضِبُوا[(٥)]. فاستيقظ النَّبيُّ ﷺ فقال: «**افعلوا كما كنتم تفعلون**»، فلمَّا فعلوا، قال: «هكذا فافعلوا لمن نام منكم أو نسي». فهذا متَّفقٌ عليه بين الأمَّة.

❋ **وأمَّا الصُّورة الثَّانية، وهي**: ما إذا تركَ الصلاةَ عمدًا حتىٰ خرجَ وقتُها، فهي مسألةٌ عظيمةٌ، تنازع فيها الناسُ: هل ينفعه القضاء ويُقْبَل منه؟ أم لا ينفعه، ولا سبيل له إلىٰ استدراكها أبدًا؟

• فقال أبو حنيفة، والشافعي، وأحمد، ومالك: يجب عليه قضاؤها، ولا يُذْهِب القضاءُ عنه إثمَ التفويت، بل هو مستحقٌّ للعقوبة، إلَّا أنْ يعفو الله عنه.

• وقالت طائفةٌ من السَّلف والخَلَف: مَن تعمَّد تأخير الصلاة عن وقتها من غير عذرٍ يجوِّز له التَّأخير فهذا لا سبيل له إلىٰ استدراكها، ولا يقدر علىٰ قضائها

---

(١) البخاري (٣٤٤)، ومسلم (٦٨٢).
(٢) حديث (٦٨١).
(٣) (١/ ٣٨٦، ٤٦٤).
(٤) الدهاس والدهس: ما سهل ولان.
(٥) أَهْضِبُوا: تكلَّموا وامْضُوا.

أبدًا، ولا تقبل منه.

ولا نزاع بينهم أنَّ التَّوبة النَّصوح تنفعه، ولكن هل من تمام توبته قضاء تلك الفوائت التي تعمَّدَ تركها، فلا تصحُّ التوبة بدون قضائها، أم لا تتوقَّف التَّوبة علىٰ القضاء؛ فيحافظ عليها في المستقبل، ويستكثر من النَّوافل، وقد تعذَّرَ عليه استدراك ما مضىٰ؟ هذا محلُّ الخلاف.

فَصْلٌ: مقدار صلاة رسول الله ﷺ:

فهي من أجلِّ المسائل وأهمِّها، وحاجة النَّاس إلىٰ معرفتها أعظم من حاجتهم إلىٰ الطَّعام والشَّراب، وقد ضيَّعَها النَّاس من عهد أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ففي «صحيح البخاري»(١)، من حديث الزهري قال: دخلتُ علىٰ أنس بن مالك بدمشق وهو يبكي، فقلتُ له: ما يبكيك؟ فقال: «**لا أعرف شيئًا ممَّا أدركت إلَّا هذه الصَّلاة، وهذه الصَّلاة قد ضُيِّعت**».

وقال موسىٰ بن إسماعيل: حدثنا مهديٌّ عن غيلان عن أنسٍ قال: ما أعرف شيئًا ممَّا كان علىٰ عهد النَّبيِّ ﷺ! قيل: فالصَّلاة؟ قال: «أليس قد صنعتم ما صنعتم فيها!». أخرجه البخاريُّ(٢) عن موسىٰ.

وأنسٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تأخَّر حتىٰ شاهَدَ من إضاعة أركان الصَّلاة، وأوقاتها، وتسبيحها في الركوع والسجود، وإتمام تكبيرات الانتقال فيها ما أنكره، وأخبر أنَّ هَدْي رسول الله ﷺ كان بخلافه.

[فقد] اتَّفق الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ علىٰ أنَّ صلاة رسول الله ﷺ كانت معتدلةً،

---

(١) حديث (٥٣٠).

(٢) حديث (٥٢٩).

فكان ركوعه، ورفعه منه، وسجوده، ورفعه منه = مناسبًا لقيامه، فإذا كان يقرأ في الفجر بمائة آية إلىٰ ستِّين آيةً فلا بُدَّ أنْ يكون ركوعُه وسجودُه مناسبًا لذلك؛ ولهذا قال البراء بن عازبٍ: «**إنَّ ذلك كلَّه كان قريبًا من السَّواء**»(١)، وكذلك كان قيامه بالليل(٢) وصلاة الكسوف(٣).

وقال عبدالله بن عمر: «**إنْ كان رسول الله ﷺ ليأمُرُنا بالتَّخفيف، وإنْ كان ليَؤُمُّنا بالصَّافات**». رواه الإمام أحمد(٤)، والنَّسائي(٥)، فهذا أمرُهُ، وهذا فعلُه المفسِّر له؛ ففي «الصَّحِيحَين»(٦) عن مالك بن الحويرث قال: أتينا رسول الله ﷺ ونحن شَبَبَةٌ متقاربون، فأَقَمْنَا عنده عشرين ليلةً، وكان رسول الله ﷺ رحيمًا رفيقًا، فظنَّ أنَّا قد اشتقنا أهلنا، فسَألَنا عمَّن تركنا من أهلنا فأخبرناه، فقال: «**ارجعوا إلىٰ أهليكم، فأقيموا فيهم، وعلِّمُوهم، ومُرُوهم، فلْيُصلُّوا صلاةَ كذا في حين كذا، وصلاةَ كذا في حين كذا، وإذا حَضَرَت الصَّلاة فليؤذِّن لكم أحدكم، وليؤمَّكم أكبرُكم، وصلُّوا كما رأيتموني أصلِّي**». والسِّياق للبُخاري.

والعبادات يُرْجَع إلىٰ الشَّارع في مقاديرها، وصفاتها، وهيئاتها، كما يُرْجَع إليه في أصلها، ولهذا لمَّا فهم بعض من نكس الله قلبه أنَّ التَّخفيف المأمور به هو ما يمكن من التَّخفيف، اعتقد أنَّ الصَّلاة كلَّما خُفِّفت وأُوجِزَت كانت أفضل! فصار كثيرٌ منهم يمرُّ فيها مرَّ السَّهم، ولا يزيد علىٰ «**الله أكبر**» في الركوع والسُّجود بسرعة، ويكاد سجوده يسبق ركوعه، وركوعه يكاد يسبق قراءته، وربَّما ظنَّ أنَّ

---

(١) أخرجه البخاري (٨٠١)، ومسلم (٤٧١).
(٢) أخرجه أحمد (١٠/ ٥٥٥٦)، وأبو داود (٨٧٤)، والنسائي (١٠٦٩).
(٣) أخرجه البخاري (١٠٤٤)، ومسلم (٩٠١).
(٤) المسند (٣/ ١٠٨٣).
(٥) حديث (٨٢٦).
(٦) أخرجه البخاري (٧٢٤٦)، ومسلم (٦٧٤).

الاقتصار علىٰ تسبيحةٍ واحدةٍ أفضل من ثلاثٍ!

وقد علَّق الله سبحانه الفلاح بخشوع المصلِّي في صلاته، فمن فاته خشوع الصَّلاة لم يكن من أهل الفلاح، ويستحيل حصول الخشوع مع العَجَلة والنَّقر قطعًا، بل لا يحصل الخشوع قطُّ إلَّا مع الطُّمأنينة، وكُلَّما زاد طمأنينةً ازداد خشوعًا، وكُلَّما قَلَّ خشوعُه اشتدَّت عَجَلَتُه حتىٰ تصير حركة بدنه بمنزلة العَبَث الذي لا يصحبُهُ خشوعٌ ولا إقبالٌ علىٰ العبوديَّة، ولا معرفة حقيقة العبوديَّة. والله سبحانه قد قال: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [المائدة:٥٥]، وقال إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [إبراهيم:٤٠]، فلن تكاد تجد ذكر الصلاة في موضعٍ من التَّنزيل إلَّا مقرونًا بإقامتها؛ فالمصلُّون في الناس قليلٌ، ومقيمو الصَّلاة منهم أقل القليل.

فالعاملون يعملون الأعمال المأمور بها علىٰ التَّرويح تحلَّة القَسَم، ويقولون: يكفينا أدْنىٰ ما يقع عليه الاسم، وليتنا نأتي به! ولو علم هؤلاء أنَّ الملائكة تصعد بصلاتهم؛ فتعرضها علىٰ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ، بمنزلة الهدايا التي يتقرَّب بها الناس إلىٰ ملوكهم وكبرائهم.

فليس مَنْ عَمَدَ إلىٰ أفضل ما يقدر عليه، فيزيِّنُه ويحسِّنُه ما استطاع، ثم يتقرَّب به إلىٰ من يرجوه ويخافه = كَمَنْ يعمد إلىٰ أسْقَط ما عنده وأهونه عليه، فيستريح منه، ويبعثه إلىٰ مَنْ لا يقع عنده بموقع.

وليس من كانت الصَّلاة ربيعًا لقلبه، وحياةً له وراحةً، وقرَّةً لعينه، وجلاءً لحزنه، وذهابًا لهمِّه وغمِّه، ومَفْزَعًا له يلجأ إليه في نوائبه ونوازله= كمن هي سَحْتٌ لقلبه، وقيدٌ لجوارحه، وتكليفٌ له، وثقلٌ عليه. فهي كبيرةٌ علىٰ هذا، وقرَّة عينٍ وراحةٌ لذلك. قال تعالىٰ: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [البقرة:٤٥- ٤٦].

فإنَّما كبرت علىٰ غير هؤلاء لخلوِّ قلوبهم من محبَّة الله تعالىٰ وتكبيره وتعظيمه والخشوعِ له، وقِلَّة رغبتهم فيه؛ فإنَّ حضور العبد في الصَّلاة، وخشوعه فيها، وتكميله لها، واستفراغه وُسْعَه في إقامتها، وإتمامها = علىٰ قدر رغبته في الله.

قال الإمام أحمد: «إنَّما حظُّهُم من الإسلام علىٰ قدر حظِّهم من الصَّلاة، ورغبتهم في الإسلام علىٰ قَدْر رغبتهم في الصَّلاة. فاعْرف نفسك يا عبدالله، واحْذَر أنْ تلقىٰ الله عَزَّوَجَلَّ ولا قدر للإسلام عندك؛ فإنَّ قدْرَ الإسلام في قلبك كقدر الصَّلاة في قلبك».

وليس حظُّ القلب العامر بمحبَّة الله وخشيته والرَّغبة فيه وإجلاله وتعظيمه من الصَّلاة كحظِّ القلب الخالي الخراب من ذلك.

فإذا وقف الاثنان بين يدي الله في الصَّلاة، وقف هذا بقلبٍ مُخْبتٍ له خاشعٍ له، قريبٍ منه، سليمٍ من معارضات السُّوء، قد امتلأت أرجاؤه بالهيبة، وسَطَع فيه نور الإيمان، وكشف عنه حجاب النَّفس، ودخان الشَّهوات؛ فيرتع في رياض معاني القرآن، وخالط قلبَه بشاشةُ الإيمان بحقائق الأسماء والصِّفات، وعلوِّها، وجلالها، وكمالها الأعظم، وتفرُّد الرَّب سبحانه بنعوت جلاله وصفات كماله، فاجتمع همُّه علىٰ الله، وقَرَّت عينه به، وأحسَّ بقُرْبِه من الله قربًا لا نظير له، ففرَّغ قلبه له، وأقبل عليه بكلِّيَّتِه.

وهذا الإقبال منه بين إقبالين من ربِّه؛ فإنَّه سبحانه أقبل عليه أوَّلًا، فانجذب قلبه إليه بإقباله، فلمَّا أقبل علىٰ ربِّه حظي منه بإقبالٍ آخر أتمَّ من الإقبال الأوَّل.

وههنا أمرٌ عجيبٌ يحصل لمن تفقَّه قلبه في معاني الأسماء والصِّفات، وخالط بشاشة الإيمان بها قلبه، بحيث يرىٰ لكُلِّ اسمٍ وصفةٍ موضعًا من صلاته، ومحلًّا منها.

فإنَّه إذا انتصب قائمًا بين يَدَي الرَّب تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ شاهد بقلبه قيُّومِيَّته، وإذا قال: «**الله أكبر**» شاهد كبرياءه، فإذا قال: «**سبحانك اللَّهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالىٰ جدُّك، ولا إله غيرك**» شاهد بقلبه ربًّا منزَّهًا عن كُلِّ عيبٍ، سالمًا من كُلِّ نقصٍ، محمودًا بكُلِّ حمدٍ؛ فحَمْدُه يتضمَّنُ وصْفه بكُلِّ كمالٍ، وذلك يستلزم براءَتَه من كُلِّ نقصٍ، تبارك اسمه، فلا يُذْكَر علىٰ قليل إلَّا كثَّره، ولا علىٰ خيرٍ إلَّا أنْمَاه وبارك فيه، ولا علىٰ آفةٍ إلَّا أذهبها، ولا علىٰ شيطَانٍ إلَّا ردَّه خاسئًا داحِرًا.

وكمال الاسم من كمال مسمَّاه، فإذا كان هذا شأن اسمه الذي لا يضرُّ معه شيءٌ في الأرض ولا في السَّماء، فشأن المسمَّىٰ أعْلىٰ وأجلُّ.

و«**تعالىٰ جدُّه**» أي: ارتفعت عظمتُه، وجلَّت فوق كُلِّ عظمةٍ، وعلا شأنُه علىٰ كُلِّ شأنٍ، وقَهَر سلطانُه علىٰ كُلِّ سلطانٍ.

فتعالىٰ جدُّه أن يكون معه شريكٌ في ملكه وربوبيته، أو في إلهيَّته، أو في أفعاله، أو في صفاته، كما قال مؤمنو الجنِّ: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ٣﴾ [الجن:٣]. فكم في هذه الكلمات من تجلٍّ لحقائق الأسماء والصِّفات علىٰ قلب العارف بها، غير المعطِّل لحقائقها.

فإذا قال: «**أعوذ بالله من الشَّيطان الرجيم**» فقد آوىٰ إلىٰ ركنه الشَّديد، واعتصم بحولِه وقوَّتِه من عدوِّه، الذي يريد أنْ يقطعه عن ربِّه، ويباعده عن قُرْبِه، ليكون أسوأ حالًا.

فإذا قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ٢﴾ [الفاتحة:٢] وقف هنيئةً يسيرةً، ينتظر جواب ربِّه له، بقوله: «**حمدني عبدي**»، فإذا قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٣﴾ [الفاتحة:٣] انتظر الجواب بقوله: «**أثْنىٰ علَيَّ عبدي**». فإذا قال: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ٤﴾ [الفاتحة:٤] انتظر جوابه: «**يمجِّدُني عبدي**».

فيا لَذَّة قلبه، وقُرَّة عينه، وسرور نفسه بقول ربِّه: «**عَبْدِي**» ثلاث مرَّاتٍ، فوالله لولا ما علىٰ القلوب من دخان الشَّهوات، وغيم النُّفُوس لاسْتُطِيرت فرحًا وسرورًا بقول ربِّها وفاطرها ومعبودها: «**حمدني عَبْدي**»، و«**أثنىٰ عليَّ عَبْدي**»، و«**مجَّدَني عَبْدي**». ثم يكون لقلبه مجالٌ في شهود هذه الأسماء الثَّلاثة، التي هي أصول الأسماء الحُسْنىٰ، وهي: «**الله**»، و «**الرَّب**»، و «**الرَّحمن**».

فشاهَدَ قلبُه من ذكر اسم «**الله**» تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: إلهًا معبودًا موحَّدًا مخوفًا، لا يستحقُّ العبادة غيره، ولا تنبغي إلَّا له، قد عَنَت له الوجوه، وخضعت له الموجودات، وخشعت له الأصوات، ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ﴾ [الإسراء:٤٤]، ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ٢٦﴾ [الروم:٢٦].

وكذلك خَلَق السَّموات والأرض وما بينهما، وخلق الجنَّ والإنس، والطَّير والوحش، والجنَّة والنَّار، وكذلك أرْسَل الرسل، وأنزل الكتب، وشرع الشَّرائع، وألزم العباد الأمر والنَّهي.

وشاهد من ذكر اسمه «**ربِّ العالمين**»: قيُّومًا قام بنفسه، وقام به كل شيءٍ، فهو قائمٌ علىٰ كلِّ نفسٍ بخيرها وشرِّها، قد استوىٰ علىٰ عرشه، وتفرَّد بتدبير ملكه؛ فالتَّدبير كلُّه بيَدَيْه، ومصير الأمور كلِّها إليه، فمراسيم التَّدبير نازلة من عنده، علىٰ أيدي ملائكته بالعطاء والمنع، والخفض والرفع، والإحياء والإماتة، والتَّولية والعزل، والقبض والبسط، وكشف الكروب، وإغاثة الملهوفين، وإجابة المضطرِّين، ﴿يَسۡـَٔلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ ٢٩﴾ [الرحمن:٢٩]، لا مانع لما أعطىٰ، ولا معطي لما منع، ولا معقِّب لحكمه، ولا رادَّ لأمره، ولا مبدِّل لكلماته، تعرج الملائكة والرُّوح إليه، وتُعْرَض الأعمال أول النَّهار وآخره عليه؛

فيقدِّر المقادير، ويوقِّت لها المواقيت، ثم يسوق المقادير إلىٰ مواقيتها، قائمًا بتدبير ذلك كلِّه وحفظه ومصالحه.

ثم يشهد عند ذكر اسم «**الرَّحمن**» جَلَّجَلَالُهُ: ربًّا محسنًا إلىٰ خلقه بأنواع الإحسان، متحبِّبًا إليهم بصُنُوف النِّعم، وسع كلَّ شيءٍ رحمة وعلمًا، وأوسع كلَّ مخلوقٍ نعمةً وفضلًا؛ فوَسِعَت رحمتُه كلَّ شيءٍ، وسَعَت نعمتُه إلىٰ كلِّ حيٍّ.

فبَلَغَت رحمتُهُ حيث بلغ علمُه؛ فاستوىٰ علىٰ عرشه برحمته، وخلق خلقه برحمته، وأنزل كتبه برحمته، وأرسل رسله برحمته، وشرع شرائعه برحمته، وخلق الجنَّة برحمته، والنَّار أيضًا برحمته؛ فإنَّها سوطه الذي يسوق به عباده المؤمنين إلىٰ جنَّته، ويطهِّر بها أدران الموحِّدين من أهل معصيته، وسجنه الذي يسجن فيه أعداءه من خليقته.

فتأمَّل ما في أمره ونهيه، ووصاياه ومواعظه؛ من الرَّحمة البالغة، والنِّعمة السَّابغة، وما في حشو مخلوقاته من الرَّحمة والنِّعمة. فالرحمة هي السَّبب المتَّصل منه بعباده، كما أنَّ العبودية هي السَّبب المتَّصل به منهم، فمِنهم إليه العبوديَّة، ومنه إليهم الرَّحمة.

ومن أخصِّ مشاهد هذا الاسم: شهود المصلِّي نصيبه من الرَّحمة، الذي أقامه بين يَدَي ربِّه، وأهَّلَه لعبوديته ومناجاته، وأعطاه ومنع غيره، وأقبل بقلبه وأعرض بقلب غيره، وذلك من رحمته به.

فإذا قال: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ [الفاتحة:٤]: فهنا شهد المجد الذي لا يليق بسوىٰ الملك الحقِّ المبين؛ فيشهد ملكًا قاهرًا، قد دانت له الخليقة، وعَنَت له الوجوه، وذلَّت لعظمته الجبابرة، وخضع لعِزَّته كلُّ عزيزٍ، فيشهد بقلبه:

مَلِيكًا علىٰ عَرشِ السَّماء مُهَيْمِنًا ❊❊ لِعِزَّتِه تَعْنُو الوُجُوهُ وتَسْجُدُ[١]

وإذا لم يُعَطِّل حقيقة صفة المُلْكِ أطْلَعَتْهُ علىٰ شهود حقائق الأسماء والصِّفات، التي تعطيلها تعطيلٌ لمُلْكِه وجحدٌ له؛ فإنَّ الملِكَ الحقَّ، التَّامَّ المُلْكِ لا يكون إلَّا حيًّا، قيُّومًا، سميعًا، بصيرًا، مُريدًا، قادِرًا، متكلِّمًا، آمِرًا، ناهيًا، مستويًا علىٰ سرير مملكته، يرسل رسله إلىٰ أقاصي مملكته بأوامره، فيرضىٰ علىٰ من يستحقُّ الرِّضا، ويثيبُه ويكرِمُه ويُدْنِيه، ويغضب علىٰ من يستحقُّ الغضب، ويعاقبه ويهينُه ويقْصِيه؛ فيعذِّب من يشاء، ويرحم من يشاء، ويعطي من يشاء، ويمنع من يشاء، ويقرِّب من يشاء، ويُقْصِي من يشاء، له دار عذابٍ وهي النَّار، وله دار سعادة وهي الجنَّة.

فمَنْ أبطل شيئًا من ذلك، أو جحده، أو أنكر حقيقته فقد قدح في ملكه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ونفىٰ عنه كماله وتمامه، وكذلك من أنكر عموم قضائه وقدره، فقد أنكر عموم ملكه وكماله، فيشهد المصلِّي مجد الرَّبِّ تعالىٰ في قوله: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ [الفاتحة:٤].

فإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة:٥]: ففيهما سِرُّ الخلق والأمر، والدُّنيا والآخرة، وهي متضمِّنة لأَجَلِّ الغايات، وأفضل الوسائل، فأجلُّ الغايات عبوديَّتُه، وأفضل الوسائل إعانته، فلا معبود يستحقُّ العبادة إلَّا هو، ولا معين علىٰ عبادته غيره، فعبادته أعلىٰ الغايات، وإعانته أجلُّ الوسائل.

وقد اشتملت هذه الكلمة علىٰ نَوْعَي التَّوحيد، وهما توحيد الرُّبُوبية، وتوحيد الإلهية، وتضمَّنَت التعبُّد باسم «**الرَّبِّ**» واسم «**الله**»، فهو يُعْبَد بألوهيَّته، ويُستَعان بربوبيَّته، ويهدي إلىٰ الصِّراط المستقيم برحمته.

---

(١) البيت لأميَّة بن أبي الصَّلت.

فكان أول السُّورة ذكر اسمه «الله» و«الرَّبِّ» و«الرَّحمن» مطابقًا لأَجَلِّ المطالبِ؛ من عبادته وإعانته وهدايته، وهو المتفرِّد بإعطاء ذلك كلِّه، لا يعين علىٰ عبادته سواه، ولا يهدي سواه.

ثم يشهد الدَّاعي بقوله: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦﴾ [الفاتحة:٦]: شدَّة فاقته وضرورته إلىٰ هذه المسألة، التي ليس هو إلىٰ شيءٍ أشدّ فاقةً وحاجةً منه إليها ألبتَّة؛ فإنَّه محتاجٌ إليه في كُلِّ نَفَسٍ وطرفة عينٍ، وهذا المطلوب من هذا الدُّعاء لا يتمُّ إلَّا بالهداية إلىٰ الطريق الموصل إليه سبحانه، والهداية فيه، وهي هداية التَّفصيل، وخلق القدرة علىٰ الفعل، وإرادته وتكوينه وتوفيقه لإيقاعه له علىٰ الوجه المرضيِّ المحبوب للرَّبِّ سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، وحفظه عليه من مفسداته حال فعله وبعد فعله.

ولمَّا كان العبد مفتقرًا في كُلِّ حالٍ إلىٰ هذه الهداية، في جميع ما يأتيه ويذَرُهُ، من أمورٍ قد أتاها علىٰ غير الهداية، فهو يحتاج إلىٰ التَّوبة منها، وأمورٍ هُدِي إلىٰ أصلها دون تفصيلها، أو هُدِي إليها من وجهٍ دون وجهٍ، فهو يحتاج إلىٰ تمام الهداية فيها؛ ليزداد هُدًىٰ، وأمورٍ هو يحتاج إلىٰ أن يَحْصُل له من الهداية فيها بالمستقبل مثل ما حصل له في الماضي، وأمورٍ هو خالٍ عن اعتقادٍ فيها، فهو يحتاج إلىٰ الهداية فيها. وأمورٍ لم يفعلها، فهو يحتاج إلىٰ فعلها علىٰ وجه الهداية، وأمورٍ قد هُدِي إلىٰ الاعتقاد الحقِّ والعمل الصَّواب فيها، فهو محتاجٌ إلىٰ الثَّبات عليها، إلىٰ غير ذلك من أنواع الهدايات = فَرَضَ الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ عليه أنْ يسأله هذه الهداية في أفضل أحواله، مرَّاتٍ متعدِّدةً في اليوم واللَّيلة.

ثم بيَّن أنَّ أهل هذه الهداية هم المختصُّون بنعمته، دون ﴿ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الفاتحة:٧]، وهم الذين عرفوا الحق ولم يتَّبعُوه، ودون ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾ ، وهم الذين

عبدوا الله بغير علمٍ.

فالطَّائفتان اشتركتا في القول علىٰ الله في خلقه، وأمره، وأسمائه وصفاته بغير علمٍ. فسبيل المُنْعَمِ عليه مغايِرةٌ لسبيل أهل الباطل كُلِّها علمًا وعملًا.

فلمَّا فرغ من هذا الثَّناء والدُّعاء والتَّوحيد شرع له أنْ يطبع علىٰ ذلك بطابعٍ من التَّأمين، يكون كالخاتم له، وافق فيه ملائكة السَّماء. وهذا التَّأمين من زِينة الصَّلاة، كرفع اليَدَيْن الذي هو زِينة الصَّلاة، واتباع للسُّنَّة، وتعظيم أمر الله، وعبوديَّة لليَدَيْن، وشعار الانتقال من ركنٍ إلىٰ ركنٍ.

ثم يأخذ في مناجاة ربِّه بكلامه، واستماعه من الإمام بالإنصات، وحضور القلب وشهوده.

وأفضل أذكار الصَّلاة ذكر القيام، وأحسن هيئات المصلِّي هيئات القيام؛ فخُصَّت بالحمد والثَّناء والمجد، وتلاوة كلام الربِّ جَلَّجَلَالُهُ؛ ولهذا نُهِي عن قراءة القرآن في الركوع والسُّجود؛ لأنَّهما حالتا ذُلٍّ وخضوعٍ وتطامنٍ وانخفاضٍ؛ ولهذا شُرِع فيهما من الذِّكر ما يناسب هيئتهما، فشُرِع للرَّاكع أنْ يذكر عظمة ربِّه في حال انخفاضه هو وتطامنه وخضوعه، وأنَّه سبحانه يُوْصَف بوصف عظمته عمَّا يضادُّ كبرياءه وجلاله وعظمته.

فأفضل ما يقول الرَّاكع علىٰ الإطلاق «**سبحان ربي العظيم**»؛ فإنَّ الله سبحانه أمر العِبَاد بذلك، وعيَّن المبلِّغَ عنه، السَّفِير بينه وبين عباده هذا المحلَّ لهذا الذِّكر.

وبالجملة: فسِرُّ الرُّكُوع تعظيم الرَّبِّ جَلَّجَلَالُهُ بالقلب والقالب والقول؛ ولهذا قال النَّبيُّ ﷺ: «**أمَّا الرُّكوع فعظِّمُوا فيه الرَّب**»(١) .(٢)

---

(١) أخرجه مسلم (٤٧٩).
(٢) (ص:٢٨٩-٣٥٧)

فصلٌ: [الرفع من الركوع]

ثم يرفع رأسه عائدًا إلىٰ أكمل هيئاته، وجعل شعار هذا الركن حمد الله، والثَّناء عليه، وتمجيده، فافتتح هذا الشِّعار بقول المصلِّي: «**سمِعَ اللهُ لمَنْ حَمِدَه**»، أي: سَمِعَ سَمْعَ قبولٍ وإجابةٍ.

ثم شفَع بقوله: «**ربَّنا ولك الحمد، مِلءَ السَّموات والأرض، ومِلءَ ما بينهما، ومِلءَ ما شِئتَ من شيءٍ بعد**».

ولا يهمل أمر هذه الواو في قوله: «**ربَّنا ولك الحمد**»؛ فإنَّه قد نُدِب الأمر بها في «الصَّحيحَين»[1].

ثمَّ أخبر عن شأن هذا الحمد، وعظمته قدرًا وصفةً، فقال: «**مِلءَ السَّموات ومِلءَ الأرض، ومِلءَ ما بينهما، ومِلءَ ما شئتَ من شيءٍ بعد**»، أي: قدر ملءِ العالِم العلوي والسُّفلي، والفضاء الذي بينهما.

فهذا الحمد قد ملأ الخلق الموجود، وهو يملأ ما يخلقه الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بعد ذلك ممَّا يشاؤه، فحمده قد ملأ كلَّ موجودٍ، وملأ ما سيوجد؛ فهذا أحسن التَّقديرَيْن.

وقيل: «**ما شئتَ من شيءٍ**» وراء العالم؛ فيكون قوله: «**بعد**» للزَّمان علىٰ الأول، وللمكان علىٰ الثَّاني. ثمَّ أَتْبَعَ ذلك بقوله: «**أهلَ الثَّناء والمجْد**»: فعاد الأمر بعد الرَّكعة إلىٰ ما افتتح به الصَّلاة قبل الرَّكعة، من الحمد والثَّناء والمجد.

ثمَّ أَتْبَعَ ذلك بقوله: «**أحقُّ ما قال العبدُ**»: تقريرًا لحمده وتمجيده والثَّناء عليه، وأنَّ ذلك أحق ما نَطَق به العبد، ثمَّ أَتْبَع ذلك بالاعتراف بالعبوديَّة، وأنَّ ذلك حُكمٌ

---

(١) أخرجه البخاري (٦٨٩)، ومسلم (٤١١).

عامٌّ لجميع العبيد.

ثمَّ عقَّب ذلك بقوله: «**لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجَدِّ منك الجَد**»: وكان يقول ذلك بعد انقضاء الصَّلاة أيضًا؛ فيقوله في هذين الموضِعَين اعترافًا بتوحيده، وأنَّ النِّعم كلَّها منه. **وهذا يتضمَّن أمورًا**:

- **أحدها**: أنَّه المتفرِّد بالعطاء والمنع.
- **الثَّاني**: أنَّه إذا أعطىٰ لم يُطِق أحدٌ منع مَنْ أعطاه، وإذا مَنَع لم يُطِق أحدٌ إعطاء من مَنَعَه.
- **الثَّالث**: أنَّه لا ينفع عنده، ولا يخلص من عذابه، ولا يُدْني من كرامته جُدُودُ بني آدم وحظوظُهم؛ من المُلْك، والرِّئاسة، والغنىٰ، وطيب العَيش، وغير ذلك؛ إنَّما ينفعهم عنده التَّقرُّب إليه بطاعته، وإيثار مرضاته.

ثمَّ ختم ذلك بقوله: «**اللَّهُمَّ اغسلني من خطايَاي بالماء والثَّلج والبَرَد**»: كما افتتح به الرَّكعة في أول الاستفتاح، كما كان يختم الصَّلاة بالاستغفار، وكان الاستغفار في أوَّل الصَّلاة، ووسطها، وآخرها.

فاشتمل هذا الرَّكن علىٰ أفضل الأذكار وأنفع الدُّعاء؛ من حمده، وتمجيده، والثَّناء عليه، والاعتراف له بالعبوديَّة والتَّوحيد، والتنصُّل إليه من الذُّنوب والخطايا؛ فهو ذِكْرٌ مقصودٌ في ركنٍ مقصودٍ، ليس بدون الركوع والسُّجود (١).

فصْلٌ: [السجود والذكر فيه]

ثمَّ يكبِّر ويخرُّ لله ساجدًا، غير رافعٍ يديه؛ لأنَّ اليدين تنحطَّان للسُّجود كما ينحطُّ الوجه، فهما تنحطَّان لعبوديتهما، فأغْنَىٰ ذلك عن رفعهما؛ ولذلك لم يُشْرَع

(١) (ص:٣٥٧-٣٦١).

رفعُهُما عند رفع الرَّأس من السُّجود؛ لأنَّهما يرفعان معه كما يوضعان معه، وشُرِع السُّجود علىٰ أكمل الهيئات وأبلغِها في العبوديَّة، وأعمِّها لسائر الأعضاء؛ بحيث يأخذ كلُّ جزءٍ من البَدَن بحظِّه من العبوديَّة.

والسُّجُود سِرُّ الصلاة، وركنها الأعظم، وخاتمة الركعة، وما قبله من الأركان كالمقدِّمات له، فهو شِبْهُ طواف الزِّيارة في الحجِّ؛ فإنَّه مقصود الحجِّ، ومحلُّ الدُّخول علىٰ الله وزيارته، وما قبله كالمقدِّمات له؛ ولهذا أقرب ما يكون العبد من ربِّه وهو ساجدٌ. وأفضل أحواله حالٌ يكون فيها أقرب إلىٰ الله؛ ولهذا كان الدُّعاء في هذا المحلِّ أقرب إلىٰ الإجابة.

ولـمَّا خلق الله سبحانه العبد من الأرض كان جديرًا بأنْ لا يخرج عن أصله؛ بل يرجع إليه إذا تقاضاه الطَّبْع والنَّفس بالخروج عنه؛ فإنَّ العبد لو تُرِكَ وطبعه ودواعي نفسه لتكَبَّرَ، وأَشِرَ، وخرج عن أصْله الذي خُلِق منه، ولوَثَب علىٰ حقِّ ربِّه، من الكبرياء والعَظَمة، فنازعه إيَّاهما؛ فأُمِر بالسُّجود خضوعًا لعظمة ربِّه وفاطره، وخشوعًا له، وتذلُّلًا بين يديه، وانكسارًا له.

فيكون هذا الخشوع، والخضوع، والتذلُّل رادًّا له إلىٰ حكم العبوديَّة، ويتدارك به ما حصل له من الهفوة والغفلة، والإعراض الذي خرج به عن أصله، فَيتَمَثَّل له حقيقة التراب الذي خلق منه، وهو يضع أشرف شيءٍ منه وأعلاه ـ وهو الوجه ـ فيه، وقد صار أعلاه أسفله؛ خضوعًا بين يَدَي ربِّه الأعلىٰ، وخشوعًا له، وتذلُّلًا لعظمته، واستكانةً لعِزَّته. وهذا غاية خشوع الظَّاهر.

فإنَّ الله سبحانه خَلَقَه من الأرض التي هي مذلَّلةٌ للوطء بالأقدام، واستعمره فيها، وردَّه إليها، ووعده بالإخراج منها، فهي أُمُّه وأبوه وأصْلُه وفصْلُه، فضمَّته حيًّا علىٰ ظهرها، وميِّتًا في بطنها، وجُعِلَت له طُهْرًا ومسجدًا، فأُمِر بالسُّجود؛ إذ هو غاية

خشوع الظَّاهر، وأجمع العبوديَّة لسائر الأعضاء، فيُعَفِّر وجهه في التُّراب؛ استكانةً وتواضعًا وخضوعًا وإلقاءً باليدين. وقال مسروقٌ لسعيد بن جبير: «يا سعيد، ما بقي شيءٌ يُرْغَب فيه إلَّا أن نعفِّر وجوهنا في هذا التَّراب له»[١].

وكان النَّبيُّ ﷺ لا يتَّقي الأرض بوجهه قصدًا؛ بل إذا اتَّفق له ذلك فَعَله؛ ولذلك سَجَد في الماء والطِّين[٢]. ولهذا كان من كمال السُّجود الواجب أنْ يسجد علىٰ الأعضاء السَّبعة: الوجه، واليدين، والركبتين، وأطراف القدمين؛ فهذا فرضٌ أمر الله به رسولَه ﷺ، وبلَّغَه الرسول لأُمَّته.

ومن كماله الواجب أو المستحبِّ: مباشرةُ مصلَّاه بأديم وجْهِه، واعتماده علىٰ الأرض؛ بحيث ينالها ثِقْل رأسه، وارتفاع أسافله علىٰ أعاليه، فهذا من تمام السُّجود.

ومن كماله: أنْ يكون علىٰ هيئاتٍ، يأخذ كلُّ عضوٍ من البَدَن بحظِّه من الخضوع؛ فيقل بطنه عن فخِذَيه، وفخِذَيه عن ساقَيه، ويجافي عضدَيه عن جنْبَيه، ولا يفرشهما علىٰ الأرض؛ ليستقلَّ كلُّ عضوٍ منه بالعبوديَّة؛ ولذلك إذا رأىٰ الشَّيطان ابن آدم ساجدًا لله اعتزل ناحيةً يبكي، ويقول: «**يا ويلَهُ، أُمِر ابن آدم بالسُّجود فسَجَد فله الجنَّة، وأُمِرتُ بالسُّجود فعَصَيتُ فلي النَّار**»[٣].

ولذلك أثنىٰ الله سبحانه علىٰ الذين يخرُّون سُجَّدًا عند سماع كلامه، وذمَّ من لا يقع ساجدًا عنده.

ولمَّا علِمَت السَّحَرة صِدْق موسىٰ وكذب فرعون خَرُّوا سُجَّدًا لربِّهم، فكانت تلك السَّجدة أول سعادتهم، وغفران ما أفنوا فيه أعمارهم من السِّحر.

---

(١) أخرجه أحمد في "الزهد" (ص/ ٣٤٩)، وأبو نعيم في "الحلية" (٢/ ٩٦).
(٢) أخرجه البخاري (٢٠١٦)، ومسلم (١١٦٧).
(٣) أخرجه مسلم (٨١).

ولذلك أخبر سبحانه عن سُجُود جميع المخلوقات له؛ فقال تعالىٰ: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾ ﴾ [النحل:٤٩-٥٠]. فأخبر عن إيمانهم بعلوِّه وفوقيَّته، وخضوعهم له بالسُّجود تعظيمًا وإجلالًا.

وقال تعالىٰ: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾ [الحج:١٨]. فالذي حقَّ عليه العذاب هو الذي لا يَسْجُد له سبحانه، وهو الذي أهانه بترك السُّجود له، وأخبر أنَّه لا مُكْرِم له، وقد هان علىٰ ربِّه، حيث لم يسجد له.

ولما كانت العبوديَّة غاية كمال الإنسان، وقُرْبُه من الله بحسب نصيبه من عبوديَّته، وكانت الصَّلاة جامعةً لمتفرِّق العبوديَّة، متضمِّنةً لأقسامها= كانت أفضل أعمال العبد، ومنزلتها من الإسلام بمنزلة عمود الفسطاط منه، وكان السُّجود أفضل أركانها الفِعليَّة، وسرَّها الذي شُرِعَت لأجله، وكان تكرُّره في الصَّلاة أكثر من تكرُّر سائر الأركان، وجعله خاتمة الركعة وغايتها، وشُرِع فعله بعد الرُّكوع؛ فإنَّ الركوع توطئةٌ له، ومقدِّمةٌ بين يَدَيه، وشُرِعَ فيه من الثَّناء علىٰ الله ما يناسبه، وهو قول العبد: «**سبحان ربِّي الأعلىٰ**»، فهذا أفضل ما يُقَال فيه، ولم يَرِد عن النَّبِيِّ ﷺ أمره في السُّجود بغيره؛ حيث قال: «**اجعلوها في سجودكم**»(١).

وكان وصْفُ الرَّبِّ بالعُلُوِّ في هذه الحال في غاية المناسبة؛ لحال السَّاجد الذي قد انحطَّ إلىٰ السُّفُل علىٰ وجهه، فذكر علو ربِّه في حال سُفُولِه، وهو كما ذكر عظمته في حال خضوعه في ركوعه، ونزَّه ربَّه عمَّا لا يليق به ممَّا يضادُّ عظمَتَه وعلوَّه.

---

(١) أخرجه أبو داود (٨٦٩)، وابن ماجه (٨٨٧).

ثم لمَّا شُرِعَ السُّجود بوصف التِّكرار لم يكن بُدٌّ من الفصل بين السَّجدتين، ففَصَل بينهما بركنٍ مقصودٍ، وشَرَع فيه من الدُّعاء ما يليق به ويناسبه، وهو سؤال العبد المغفرة والرَّحمة والهداية والعافية والرزق؛ فإنَّ هذه تتضمَّن جلب خير الدُّنيا والآخرة، ودفعَ شَرِّ الدُّنيا والآخرة.

فالرَّحمة تحصِّل الخير، والمغفرة تقي الشَّرَّ، والهداية توصل إلىٰ هذا وهذا، والرزق إعطاء ما به قِوَام البَدَن من الطَّعام والشَّراب، وما به قوام الرُّوح والقلب من العلم والإيمان.

وجُعِل جلوس الفصْل محلًّا لهذا الدُّعاء لما تقدَّمه من حمد الله والثَّناء عليه والخضوع له، فكان هذا وسيلة للدَّاعي، ومقدِّمة بين يَدَي حاجته.

فهذا الرُّكن مقصودٌ، والدُّعاء فيه مقصودٌ، فهو ركنٌ وُضِع للرَّغبة، وطلب العفو والمغفرة والرَّحمة؛ فإنَّ العبد لمَّا أتىٰ بالقيام والحمد والثَّناء والمجد، ثم أتىٰ بالخضوع وتنزيه الرَّبِّ وتعظيمه، ثم عاد إلىٰ الحمد والثَّناء، ثم كمَّل ذلك بغاية التذلُّل والخضوع والاستكانة= بقي سؤال حاجته واعتذاره وتنصُّله؛ فشَرَع له أنْ يتمثَّل في الخدمة، فيقصد فعل العبد الذَّليل جاثيًا علىٰ ركبَتَيه، كهيئة الملقي نفسه بين يَدَي سيِّده، راغبًا، راهبًا، معتذرًا إليه، مستعديًا إليه علىٰ نفسه الأمَّارة بالسُّوء.

ثمَّ شَرَع له تكرار هذه العبوديَّة مرَّةً بعد مرَّةٍ إلىٰ إتمام الأربع، كما شَرَع له تكرير الذِّكر مرَّةً بعد مرَّةٍ؛ لأنَّه أبلغ في حصول المقصود، وأدْعىٰ إلىٰ الاستكانة والخضوع.

فلمَّا أكمل ركوع الصَّلاة، وسجودها، وقراءتها، وتسبيحها، وتكبيرها شُرِعَ له أنْ يجلس في آخر صلاته جلسة المتخشِّع المتذلِّل المستكين، جاثيًا علىٰ ركبتيه.

ويأتي في هذه الجلسة بأكمل التَّحيَّات وأفضلها، عوضًا عن تحيَّة المخلوق

للمخلوق إذا واجَهَه أو دخل عليه؛ فإنَّ النَّاس يحيُّون ملوكهم وأكابرهم بأنواع التحيَّات التي يتَحبَّبُون بها إلىٰ قلوبهم.

فبعضهم يقول: أنعم صباحًا، وبعضهم يقول: لك البقاء والنِّعمة، وبعضهم يقول: أطال الله بقاءك، وبعضهم يقول: تعيش ألف عام، وبعضهم يسجد للملوك، وبعضهم يسلِّم؛ فتحيَّاتهم بينهم تتضمَّن ما يحبُّه المُحَيَّا من الأقوال والأفعال.

فـ «**التحيَّات**» هي تحيَّةٌ من العبد للحيِّ الذي لا يموت، وهو سبحانه أولىٰ بتلك التحيَّات من كُلِّ ما سواه؛ فإنَّها تتضمَّن الحياة والبقاء والدَّوام، ولا يستحقُّ أحدٌ هذه التحيَّات إلَّا الحيُّ الباقي الذي لا يموت، ولا يزول ملكُه.

وكذلك قوله: «**والصَّلوات**»؛ فإنَّه لا يستحق أحدٌ الصَّلاة إلَّا الله عَزَّوَجَلَّ، والصَّلاة لغيره من أعظم الكفر والشِّرك به.

وكذلك قوله: «**والطَّيِّبات**»، هي صفةٌ لموصوفٍ محذوفٍ؛ أي: الطَّيِّبات من الكلمات، والأفعال والصِّفات والأسماء لله وحده.

فهو طيِّبٌ، وكلامه طيِّبٌ، وأفعاله طيِّبةٌ، وصفاته أطيب شيءٍ، وأسماؤه أطيب الأسماء، واسمه «**الطَّيِّب**»، ولا يصدر عنه إلَّا طيِّبٌ، ولا يصعد إليه إلَّا طيبٌّ، ولا يقرب منه إلَّا طيِّبٌ. فكلُّه طيِّبٌ، و ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ ﴾ [فاطر: ١٠]، وفعله طيِّبٌ، والعمل الطيِّب يعرج إليه.

فالطيِّبات كلُّها له، ومضافةٌ إليه، وصادرةٌ عنه، ومنتهيةٌ إليه. قال النَّبيُّ ﷺ: «**إنَّ الله طيِّبٌ لا يقبل إلَّا طيِّبًا**»(١)، وفي حديث رقية المريض، الذي رواه أبوداود وغيره(٢): «**أنت ربُّ الطَّيِّبين**».

---

(١) أخرجه مسلم (١٠١٥).

(٢) حديث (٣٨٩٢)، وأخرجه الحاكم (١/ ٤٩٤)، والنَّسائي في الكبرىٰ (١٠٨٠٩).

ولا يجاوِرُه من عباده إلَّا الطيِّبُون؛ كما يُقال لأهل الجنَّة: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ٧٣﴾ [الزمر:٧٣]، وقد حكم سبحانه -بشرعه وقدره- أنَّ الطَّيبات للطَّيِّبين.

فإذا كان هو سبحانه الطَّيِّب علىٰ الإطلاق فالكلمات الطَّيِّبات، والأفعال الطَّيِّبات، والصِّفات الطَّيِّبات، والأسماء الطَّيِّبات= كلُّها له سبحانه، لا يستحِقُّها أحدٌ سواه، بل ما طاب شيءٌ قطُّ إلَّا بطيبه سبحانه، فطِيبُ كل ما سواه من آثار طيبه، ولا تصلح هذه التحيَّةُ الطَّيِّبة إلَّا له.

ولـمَّا كان السَّلام من أنواع التحيَّة، وكان المسلِّم داعيًا لمن يحيِّيه، وكان الله سبحانه هو الذي يُطْلَبُ منه السَّلام، لا يُطْلَبُ له السَّلام فإنَّه السَّلام، ومنه السَّلام = شُرِع أنْ يُطْلَب منه السَّلام لعباده الذين اختصَّهم بعبوديَّته، وارتضاهم لنفسه، وشرع أنْ يبدأ بأكرمهم عليه، وأحبِّهم إليه، وأقربهم منه منزلةً في هذه التَّحيَّة.

ثم خُتِمَت هذه التحيَّة بالشَّهادتين اللَّتَيْن هما مفتاح الإسلام، فشرع أنْ يكون خاتمة الصَّلاة؛ فدخل فيها بالتَّكبير، والتَّحميد، والثَّناء، والتَّمجيد، وتوحيد الرُّبوبيَّة والإلهيَّة، وختمها بشهادة أنْ لا إله إلَّا الله وأنَّ محمَّدًا عبده ورسوله.

وشُرِعَت هذه التَّحيَّة في وسط الصَّلاة إذا زادت علىٰ ركعتين، تشبيهًا لها بجلسة الفصل بين السَّجدتين، فهي بين الرَّكعتين الأُولَيَيْن والأُخْرَيَيْن كالجلوس بين السَّجدتين، وفيها مع الفصل راحة للمصلِّي؛ لاستقباله الرَّكعتين الأُخْرَيَيْن بنشاطٍ وقوةٍ، بخلاف ما إذا وَالَىٰ بين الركعات. ولهذا كان الأفضل في النَّفل مثنىٰ مثنىٰ، وإنْ تطوَّع بأربع جلس في وسطهنَّ [١].

(١) (ص:٣٦١-٣٧٤).

فصلٌ [من معاني التشهُّد الأخير والدعاء بعده]

وجُعِلَت كلمات التَّحيَّات في آخر الصَّلاة بمنزلة خطبة الحاجة أمامها؛ فإنَّ المصلِّي إذا فرغ من صلاته جلس جلسة الرَّاغب الرَّاهب، يستعطي من ربِّه ما لا غنىٰ به عنه، فشُرِع له أمام استعطائه كلمات التَّحيَّات، مقدمةً بين يدَيْ سؤاله، ثُمَّ يُتْبِعها بالصَّلاة علىٰ من نالت أُمَّته هذه النِّعمة علىٰ يده وبسفارته.

فكأنَّ المصلِّي توسَّل إلىٰ الله سبحانه بعبوديَّته، ثم بالثَّناء عليه، والشَّهادة له بالوحدانيَّة، ولرسوله بالرِّسالة، ثم بالصَّلاة علىٰ رسوله، ثُمَّ قيل له: تخيَّر من الدُّعاء أحبَّه إليك، فذاك الحقُّ الذي عليك، وهذا الحقُّ الذي لك.

وشُرِعت الصَّلاة علىٰ آله مع الصَّلاة عليه تكميلًا لقُرَّة عينه، بإكرام آله والصَّلاة عليهم، وأنْ يصلِّي عليه وعلىٰ آله كما صلَّىٰ علىٰ أبيه إبراهيم وآله، والأنبياء كلُّهم بعد إبراهيم من آله؛ ولذلك كان المطلوب لرسول الله ﷺ صلاةً مثل الصَّلاة علىٰ إبراهيم، وعلىٰ جميع الأنبياء بعده، وآله المؤمنين؛ فلهذا كانت هذه الصَّلاة أكمل ما يصلَّىٰ علىٰ رسول الله ﷺ بها وأفضل.

فإذا أتىٰ بها المصلِّي أُمِر أنْ يستعيذ بالله من مجامع الشَّرِّ كلِّه؛ فإنَّ الشر إمَّا عذاب الآخرة، وإمَّا سببه. فليس الشرُّ إلَّا العذاب وأسبابه.

والعذاب نوعان: عذابٌ في البَرْزخ، وعذابٌ في الآخرة.

وأسبابه الفتنة، وهي نوعان: كُبرىٰ، وصُغرىٰ؛ فالكُبْرىٰ: فتنة الدَّجال وفتنة الممات، والصُّغرىٰ: فتنة الحياة التي يمكن تداركها بالتَّوبة، بخلاف فتنة الممات وفتنة الدَّجَّال؛ فإنَّ المفتون بهما لا يَتَدَاركهما.

ثمَّ شُرِع له من الدُّعاء ما يختاره من مصالح دنياه وآخرته، والدُّعاء في هذا المحلِّ قبل السَّلام أفضل من الدُّعاء بعد السَّلام، وأنفع للدَّاعي.

وهكذا كانت عامَّة أدعية النَّبيِّ ﷺ، كلُّها كانت في الصلاة من أولها إلىٰ آخرها. فكان يدعو في الاستفتاح أنواعًا من الدُّعاء، وفي الركوع، وبعد رفع رأسه منه، وفي السُّجود، وبين السَّجدتين، وفي التشهُّد قبل التَّسليم، وعلَّم الصِّدِّيق دعاءً يدعو به في صلاته(١)، وعلَّم الحسن بن علي دعاء يدعو به في قنوت الوتر(٢)، وكان إذا دعا لقومٍ أو علىٰ قومٍ جعله في الصَّلاة بعد الرُّكوع(٣).

وسِرُّ ذلك:

أنَّ المصلِّي قبل سلامه في محلِّ المناجاة والقُرْبة بين يَدَي ربِّه، فسؤاله في هذه الحال أقرب إلىٰ الإجابة من سؤاله بعد انصرافه من بين يدي ربِّه، وقد سُئِل النَّبيُّ ﷺ: أيُّ الدُّعاء أسمع؟ فقال: «**جوف اللَّيل، وأدبار الصَّلاة المكتوبة**»(٤).

ودُبُر الصَّلاة جزؤها الأخير، كدُبُر الحيوان، ودُبُر الحائط، وقد يُرَاد بدُبُرِها ما بعد انقضائها، بقرينةٍ تدلُّ عليه؛ كقوله: «**تسبِّحُون الله، وتحمدونه، وتكبرونه، دُبُر كل صلاةٍ ثلاثًا وثلاثين**»(٥)، فهنا دُبُرُها بعد الفراغ منها، وهذا نظير انقضاء الأجل؛ فإنَّه يُرَاد به آخر المدَّة ولمَّا يفرغ، ويُرَاد به فراغها وانتهاؤها(٦).

فصلٌ: [التسليم]

ثم خُتِمَت بالتَّسليم وجُعِل تحليلًا لها، يخرج به المصلِّي منها كما يخرج بتحليل الحجِّ منه، وجُعِل هذا التَّحليل دعاء الإمام لمن وراءه بالسَّلامة، التي هي

---

(١) أخرجه البخاري (٧٧٩)، ومسلم (٢٧٠٥).
(٢) أخرجه أبو داود (١٤٢٥)، والنَّسائي (١٧٤٥)، والترمذي (٤٦٤)، وابن ماجه (١١٧٨).
(٣) أخرجه البخاري (٤٥٦٠)، ومسلم (٦٧٥).
(٤) أخرجه الترمذي (٣٤٩٩)، والنَّسائي في عمل اليوم والليلة (٤٥).
(٥) أخرجه البخاري (٨٤٣)، ومسلم (٥٩٥).
(٦) (ص: ٣٧٤-٣٧٩).

أصل الخير وأساسه؛ فشُرِع لمن وراءه أنْ يتحلَّل بمثل ما تحلَّل به الإمام، وفي ذلك دعاءٌ له وللمصلِّين معه بالسَّلام، ثم شُرِع ذلك لكلِّ مصلٍّ وإن كان منفردًا.

فلا أحسن من هذا التَّحليل للصَّلاة، كما أنَّه لا أحسن من كون التَّكبير تحريمًا لها؛ فتحريمها تكبير الرَّبِّ تعالىٰ، الجامع لإثبات كلِّ كمالٍ له، وتنزيهه عن كلِّ نقصٍ وعيبٍ، وإفراده وتخصيصه بذلك، وتعظيمه وإجلاله.

فالتَّكبير يتضمَّن تفاصيل أفعال الصَّلاة، وأقوالها، وهيئاتها؛ فالصَّلاة من أوَّلها إلىٰ آخرها تفصيلٌ لمضمون «**الله أكبر**»؛ فلا أحسن من هذا التَّحريم المتضمِّن للإخلاص والتَّوحيد، ومن هذا التَّحليل المتضمِّن للإحسان إلىٰ إخوانه المؤمنين؛ فافتُتِحَت بالإخلاص، وخُتِمَت بالإحسان [1].

فصلٌ: [التوسط وضدُّه]

وقد ظهر بهذا أنَّ التعمُّق والتنطُّع والتَّشديد الذي نهىٰ عنه رسول الله ﷺ هو المخالف لهَدْيه وهَدْي أصحابه، وما كانوا عليه، وأنَّ موافقته فيما فعله هو وخلفاؤه من بعده هو محض المتابعة، وإنْ أباها مَنْ أباها، وجهلها مَنْ جهلها.

فالتعمُّق والتَّنطُّع: مخالفة ما جاء به، وتجاوزه، والغلوُّ فيه. **ويقابِلُهُ**: إضاعته، والتَّفريط فيه، والتَّقصير عنه. وهما خطأٌ وضلالةٌ، وانحرافٌ عن الصَّراط المستقيم والمنهج القويم. ودين الله بين الغالي فيه والجافي عنه.

وقد قال علي بن أبي طالبٍ: «خير النَّاس النَّمط الأوسط؛ الذي يرجع إليهم الغالي، ويلحق بهم التَّالي» [2].

وقد مَدَح تعالىٰ أهل التَّوسُّط بين الطَّرَفين المنْحَرِفَيْن في غير موضعٍ من

---

(١) (ص:٣٧٩-٣٨٠).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٣٥٦٣٩).

كتابه، فقال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا ٦٧﴾ [الفرقان:٦٧]. وقال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ فَتَقۡعُدَ مَلُومٗا مَّحۡسُورًا ٢٩﴾ [الإسراء:٢٩].

ولهذا كانت هذه الأمَّة أوسط الأُمم، وقبلتها أوسط القِبَل بين القِبْلَتَيْن المنحَرِفَتَيْن، والوسط دائمًا محميٌّ بالأطراف، فالخَلَل إليها أسرع؛ فقد اتَّفق شرع الرَّب تعالىٰ وقدره علىٰ أنَّ خيار الأمور أوساطها [(١)].

فصلٌ: [سياق صلاة النبي ﷺ]

فهاك سياق صلاته ﷺ، من حين استقباله القبلة وقوله: «الله أكبر» إلىٰ حين سلامه، كأنَّك تشاهده عيانًا، ثم اختر لنفسك بعدُ ما شئت.

كان رسول الله ﷺ إذا قام إلىٰ الصَّلاة واستقبل القِبْلة ووقف في مصلَّاه= رفع يَدَيْه إلىٰ فروع أُذُنَيه [(٢)]، واستقبل بأصابعه القبلة ونشرها [(٣)]، وقال: «الله أكبر» [(٤)].

ولم يكن يقول قبل ذلك: نَوَيْتُ أصلِّي كذا وكذا، مستقبل القبلة، أربع ركعاتٍ، فريضة الوقت، أداءً لله تعالىٰ، إمامًا أو مأمومًا! ولا كلمةً واحدةً من ذلك في مجموع صلاته من أوَّلها إلىٰ آخرها؛ فقد نَقَل عنه أصحابه حركاته وسكناته وهيئاته، حتىٰ اضطراب لحيته في الصَّلاة [(٥)]، حتىٰ إنَّه حَمَل بنت ابنته مرَّةً في الصَّلاة [(٦)]، فنقلوه ولم يهملوه؛ فكيف يتَّفق مَلَؤُهُم -من أوَّلهم إلىٰ آخرهم- علىٰ

---

(١) (ص:٣٩٢-٣٩٦).
(٢) أخرجه مسلم (٣٩١).
(٣) أخرجه الترمذي (٢٣٩)، وابن خزيمة (٤٥٨)، وابن حبَّان (١٧٦٩).
(٤) أخرجه مسلم (٣٩٢).
(٥) أخرجه البخاري (٧٤٦).
(٦) أخرجه البخاري (٥١٦)، ومسلم (٤٩٤).

ترك نقل هذا المهمِّ، الذي هو شِعَار الدُّخول في الصَّلاة؟ ولعمر الله لو ثبت عنه من هذا كلِّه كلمة واحدة لكُنَّا أول من اقتدىٰ به فيها، وبادر إليها.

ثم كان يمسك شماله بيمينه، فيضعها عليها فوق المِفْصَل، ثم يضعهما علىٰ صَدْرِه[(١)]، ثُمَّ يقول: «**سبحانك اللَّهُم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالىٰ جَدُّك، ولا إله غيرك**»[(٢)].

وكان أحيانًا يقول: «**اللَّهم باعِد بيني وبين خطاياي كما باعَدْت بين المشرق والمغرب، اللَّهُمَّ نَقِّني من خطايَاي كما يُنَقَّىٰ الثَّوب الأبيض من الدَّنَس، اللَّهُمَّ اغسل خطايايَ بالماء والثَّلْج والبَرَد**»[(٣)].

وكان يقول أحيانًا: «**وجَّهْتُ وجهي للَّذي فَطَر السَّماوات والأرض، حنيفًا، وما أنا من المشركين،** ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام:١٦٢-١٦٣]، **اللَّهُمَّ أنت الملك، لا إله إلَّا أنت، أنت ربِّي وأنا عبدك، ظلمتُ نفسي، واعترفت بذنبي، فاغفر لي ذنوبي جميعًا، لا يغفر الذُّنوب إلَّا أنت، واهدني لأحسن الأخلاق، لا يهدي لأحسنها إلَّا أنت، واصرف عنِّي سيِّئَها، لا يصرِفُ عنِّي سيِّئَها إلَّا أنت، لبَّيْكَ وسَعْدَيْك والخير كلُّه في يَدَيك، والشَّرُّ ليس إليك، أنا بك وإليك، تباركت وتعالَيْت، استغفرك وأتوب إليك**»[(٤)]، ولكن هذا إنَّما حُفِظ عنه في صلاة اللَّيل.

---

(١) أمَّا وضع اليد اليُمْنىٰ علىٰ اليُسْرىٰ: فأخرجه البخاري (٧٤٠)، ومسلم (٤٠١). وأمَّا وضع يده اليُسْرَىٰ علىٰ مفصل اليمنىٰ: فأخرجه أبوداود (٧٢٧)، والنسائي (٨٨٩). وأمَّا وضعهما علىٰ الصَّدر: فأخرجه ابن خزيمة (٤٩٧).

(٢) أخرجه مسلم موقوفًا (٣٩٩).

(٣) أخرجه البخاري (٧٤٤)، ومسلم (٥٩٨).

(٤) أخرجه مسلم (٧٧١).

وربَّما كان يقول: «**الله أكبر كبيرًا، الله أكبر كبيرًا، الله أكبر كبيرًا، الحمد لله كثيرًا، الحمد لله كثيرًا، وسبحان الله بكرةً وأصيلًا**»[(١)].

ورُبَّما كان يقول: «**الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلَّا أنت، لا إله إلَّا أنت، سبحان الله وبحمده، سبحان الله وبحمده، سبحان الله وبحمده**»[(٢)].

ثُمَّ يقول: «**أعوذ بالله من الشَّيطان الرَّجيم**»، ورُبَّما قال: «**أعوذ بالله من الشَّيطان الرَّجيم، من نفْخِه ونفْثِه وهَمْزِه**»[(٣)]، ورُبَّما قال: «**اللَّهُمَّ إنِّي أعوذ بك من الشَّيطان الرَّجيم، وهَمْزِه ونفْخِه ونفْثِه**»[(٤)].

ثم يقرأ فاتحة الكتاب، فإنْ كانت الصَّلاة جهرية أسْمَعَهُم القراءة، ولم يُسْمِعهم «**بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**»، فربُّه أعلم هل كان يقرؤها أم لا؟ وكان يقطِّع قراءته آيةً آيةً، ثُمَّ يقف علىٰ ﴿رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٢﴾ [الفاتحة:٢]، ثم يبتدئ ﴿ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾، ويقف، ثُمَّ يبتدئ ﴿مَـٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾. علىٰ ترسُّلٍ وتمهُّلٍ وترتيل، يمدُّ ﴿ٱلرَّحْمَـٰنِ﴾، ويمُدُّ ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾[(٥)]. وكان يقرأ ﴿مَـٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ بالألف[(٦)]، وإذا ختم السُّورة قال: «**آمين**»، يجهر بها، ويمدُّ بها صوتَه[(٧)]، ويجهر بها مَنْ خلفه، حتىٰ يرتجَّ المسجد[(٨)].

واختلفت الرِّواية عنه: هل كان يسكت بين الفاتحة وقراءة السُّورة، أم كانت

---

(١) أخرجه مسلمٌ (٦٠١).
(٢) أخرجه أحمد (١٠/ ٥٢١٣).
(٣) أخرجه أبوداود (٧٦٤)، وابن ماجه (٨٠٧)، وابن حبَّان (١٧٨٠)، واللفظ لابن حبَّان.
(٤) أخرجه أبوداود (٧٦٤)، وابن ماجه (٨٠٧).
(٥) أخرجه البخاري (٥٠٤٦).
(٦) أخرجه أحمد (١٢/ ٦٣٨٩) وأبو داود (٤٠٠١).
(٧) أخرجه الترمذي (٢٤٨)، وأبو داود (٩٣٢).
(٨) أخرجه أبوداود (٩٣٤)، وابن ماجه (٨٥٣).

سكتته بعد القراءة كلِّها؟

وبالجملة فلم يُنْقل عنه ﷺ بإسنادٍ صحيحٍ ولا ضعيفٍ أنَّه كان يسكت بعد قراءة الفاتحة حتىٰ يقرأها مَنْ خَلْفه، ولو كان يسكت هنا سكتة طويلة يدرك فيها المأموم قراءة الفاتحة لما خفي ذلك علىٰ الصَّحابة، ولكان معرفتهم به ونَقْلهم له أهم من سكتة الاستفتاح.

ثم يقرأ بعد ذلك سورةً، طويلةً تارةً، وقصيرةً تارةً، ومتوسِّطةً تارةً، ولم يكن يبتدئ من وسط سورةٍ ولا من آخرها؛ وإنَّما كان يقرأ من أوَّلها، فتارةً يكملها، وهو أغلب أحواله، وتارةً يقتصر علىٰ بعضها، ويكملها في الرَّكعة الثانية.

ولم ينقل أحدٌ عنه أنَّه قرأ بآيةٍ من سورةٍ أو بآخرها إلَّا في سُنَّة الفجر؛ فإنَّه كان يقرأ فيها بهاتين الآيتين: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾ [البقرة:١٣٦] الآية، و ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ﴾ [آل عمران:٦٤] الآية[(١)].

وكان يقرأ بالسُّورة في الرَّكعة، وتارةً يعيدها في الرَّكعة الثَّانية، وتارةً يقرأ بسورتين في ركعةٍ.

* **أمَّا الأوَّل**: فكقول عائشة: «إنَّه قرأ في المغرب بالأعراف، فرَّقها في الرَّكعتين»[(٢)].

* **وأمَّا الثَّاني**: فقراءته في الصُّبح ﴿إِذَا زُلۡزِلَتِ﴾ [الزلزلة:١] في الرَّكعتين كِلْتَيهما. والحديثان في «السُّنن»[(٣)].

---

(١) أخرجه مسلم (٧٢٧).
(٢) أخرجه أبو داود (٨١٢).
(٣) أخرجه أبو داود (٨١٦).

* **وأمَّا الثَّالث**: فكقول ابن مسعود: «لقد عَرَفتُ النَّظائر التي كان رسول الله ﷺ يقرن بينها»، فذكر عشرين سورةً من المفصَّل، سورتين في ركعةٍ. وهذا في «الصَّحيحَين»[١].

وكان يمدُّ قراءة الفجر ويطيلها أكثر من سائر الصَّلوات، وأقصر ما حُفِظ عنه أنَّه قرأ به فيها في الحَضَر ﴿قٓ﴾ ونحوها[٢].

وكان يجهر بالقراءة في الفجر، وفي الأُولَيَين من المغرب والعشاء، ويُسِرُّ فيما سوىٰ ذلك. وربَّما كان يُسْمِعُهم الآية في صلاة السِّرِّ أحيانًا[٣].

وكان يقرأ في فجر يوم الجمعة سورة ﴿الٓمٓ ١ تَنزِيلُ﴾ السَّجدة، و ﴿هَلۡ أَتَىٰ﴾ [الإنسان:١] كاملتين[٤]. ولم يقتصر علىٰ إحداهما، ولا علىٰ بعض هذه وبعض هذه قط.

وكان يقرأ في صلاة الجمعة بسورة الجمعة والمنافقين كاملتين[٥]، ولم يقتصر علىٰ أواخرهما يومًا من الدَّهر، ورُبَّما كان يقرأ بسورة الأعلىٰ والغاشية[٦].

وكان يقرأ في العيدين بسورة ﴿قٓ﴾ و ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ [القمر:١] كاملتين[٧]، ولم يقتصر علىٰ أواخرهما يومًا من الدَّهر، وكان يقرأ في صلاة السِّرِّ بسورةٍ فيها السَّجدة أحيانًا، فيسجد للسَّجدة ويسجد معه مَنْ خَلْفه[٨].

---

(١) البخاري (٧٧٥)، ومسلم (٧٢٢).
(٢) أخرجه مسلم (٤٥٧).
(٣) أخرجه البخاري (٧٧٦)، ومسلم (٤٥١).
(٤) أخرجه البخاري (٨٩١)، ومسلم (٨٨٠).
(٥) أخرجه مسلم (٨٧٧).
(٦) أخرجه مسلم (٨٧٨).
(٧) أخرجه مسلم (٨١٩).
(٨) أخرجه مسلم (٥٧٥).

وكان يقرأ في الظُّهر قدر ﴿الٓمٓ ١ تَنزِيلُ﴾ السَّجدة، ونحو ثلاثين آية[(١)]، ومرَّةً كان يقرأ فيها بـ ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ١﴾ [الأعلى:١] [(٢)]، و ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ١﴾ [الليل:١] [(٣)]، و ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ ١﴾ [البروج:١] و ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ١﴾ [الطارق:١]، ونحوها من السُّور[(٤)]، ومرةً بلقمان والذَّاريات[(٥)]. وكان يقوم في الرَّكعة الأولىٰ منها حتىٰ لا يُسْمَع وقعُ قَدَمٍ[(٦)].

وكذلك كان يطيل الرَّكعة الأولىٰ من كُلِّ صلاةٍ علىٰ الثَّانية[(٧)]، وكانت قراءته في العصر في الرَّكعتين الأُوْلَيَيْن في كُلِّ ركعة قدر خمس عشرة آية[(٨)]، وكان يقرأ في المغرب بالأعراف تارةً[(٩)]، وبالطُّور تارةً[(١٠)]، والمرسلات تارةً[(١١)]، وبالدُّخان تارةً[(١٢)].

وكان يقرأ في عشاء الآخرة بـ ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ ١﴾ [التين:١] [(١٣)]، وسورة ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ١﴾ [الانشقاق:١]، ويسجد فيها، ويسجد معه جميع مَنْ خَلْفَه[(١٤)]، وبـ

---

(١) أخرجه مسلم (٤٥٢).
(٢) أخرجه مسلم (٤٥٢).
(٣) أخرجه مسلم (٤٥٩).
(٤) اخرجه أبوداود (٨٠٥)، والنسائي (٩٧٩)، والترمذي (٣٠٧).
(٥) أخرجه النسائي (٩٧١)، وابن ماجه (٨٣٠).
(٦) أخرجه أحمد (٨/ ٤٤٠٠)، وأبو داود (٨٠٢).
(٧) أخرجه البخاري (٧٥٩)، ومسلم (٤١٥).
(٨) أخرجه مسلم (٤٥٢).
(٩) أخرجه أبو داود (٨١٢).
(١٠) أخرجه البخاري (٧٦٥)، ومسلم (٤٦٣).
(١١) البخاري (٧٦٣)، ومسلم (٤٦٢).
(١٢) أخرجه النسائي (٩٨٨).
(١٣) أخرجه البخاري (٧٦٩)، ومسلم (٤٦٤).
(١٤) أخرجه البخاري (٧٦٦)، ومسلم (٥٧٨).

﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ١﴾ [الشمس:١]، ونحو ذلك من السُّور[١].

وكان إذا فَرَغ من القراءة سَكَت هُنَيْئةً؛ لتراجع إليه نَفَسُه[٢] [٣].

فصلٌ

ثُمَّ كان يرفع يَدَيه إلىٰ أنْ يحاذي بهما فروع أُذُنَيْه، كما رفعهما في الاستفتاح، صحَّ عنه ذلك[٤] كما صحَّ التَّكبير للرُّكوع، بل الذين رَوَوْا عنه رفع اليَدَين ههنا أكثر من الذين رَوَوْا عنه التَّكبير.

ثُمَّ يقول: «**الله أكبر**»، ويخرُّ راكعًا، ويَضَع يديه علىٰ ركبتيه، فيمكِّنُهُما من ركبتيه، وفرَّج بين أصابعه، وجافىٰ مِرْفَقَيه عن جَنْبَيه، ثُمَّ اعتدل، وجعل رأْسَه حِيَال ظهره، فلم يرفع رأْسَه ولم يصوِّبْه، وهَصَر ظهره، أي: مَدَّه ولم يجمعه.

ثُمَّ قال: «**سبحان ربِّي العظيم**»[٥].

وربَّما مكث قدر ما يقول القائل عشر مرَّات، وربَّما مَكَث فوق ذلك ودونه.

وربَّما قال: «**سبحانك اللَّهم ربَّنا وبحمدك، اللَّهم اغفر لي**»[٦]، **وربَّما قال**: «**سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ، ربُّ الملائكة والرُّوح**»[٧]، وربَّما قال: «**اللَّهم لك رَكَعت، وبك آمنتُ، ولك أسلمت، وعليك توكَّلْت، أنت ربِّي، خشع قلبي، وسمعي، وبصري،**

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٠٩).
(٢) أخرجه أبوداود (٧٨٠).
(٣) (ص:٣٩٧-٤١٤).
(٤) أخرجه مسلم (٣٩١).
(٥) أخرجه مسلم (٧٧٢).
(٦) أخرجه البخاري (٧٩٤)، ومسلم (٤٨٤).
(٧) أخرجه مسلم (٤٨٧).

ودمي، ولحمي، وعظمي، وعصبي، لله ربِّ العالمين»[(١)]، وربَّما كان يقول: «سبحان ذي الجبروتِ، والملكوتِ، والكِبرياءِ، والعَظَمة»[(٢)].

وكان ركوعه مناسبًا لقيامه في التَّطويل والتَّخفيف[(٣)] [(٤)].

فصلٌ

ثم كان يرفع رأسه، قائلًا: «سمع الله لمن حمده»[(٥)]، ويرفع يَدَيه كما رفعهما عند الركوع[(٦)]، فإذا اعتدل قائمًا قال: «ربَّنا ولك الحمد»[(٧)].

وربَّما قال: «ربَّنا لك الحمد»، وربَّما قال: «اللَّهم ربَّنا لك الحمد، ملءَ السَّموات وملءَ الأرض، وملءَ ما شئت من شيءٍ بعد، أهلَ الثَّناء والمجد، أحقُّ ما قال العبد، وكلُّنا لك عبدٌ، اللَّهم لا مانع لما أعطيت، ولا مُعْطِي لما منعت، ولا ينفع ذا الجَدِّ منك الجَّد»[(٨)]، وربَّما زاد علىٰ ذلك: «اللَّهم طهِّرني بالثَّلج والبَرَد والماء البارِد، اللَّهم طهِّرني من الذُّنُوب والخطايا كما ينقَّىٰ الثَّوب الأبيض من الوَسَخ»[(٩)].

وكان يُطِيْل هذا الرُّكن حتَّىٰ يقول القائل: «قد نَسِي»[(١٠)]. وكان يقول في صلاة

(١) أخرجه مسلم (٧٧١).
(٢) أخرجه أبو داود (٨٧٣)، والنَّسائي (١٠٤٩).
(٣) أخرجه البخاري (٨٢٠)، ومسلم (٤٧١).
(٤) (ص:٤١٤-٤١٦).
(٥) أخرجه البخاري (٧٨٩)، ومسلم (٣٩٢).
(٦) أخرجه مسلم (٣٩١).
(٧) أخرجه البخاري (٧٨٩)، ومسلم (٣٩٢).
(٨) أخرجه مسلم (٤٧٧).
(٩) أخرجه مسلم (٤٧٦).
(١٠) أخرجه البخاري (٨٢١)، ومسلم (٤٧٢).

اللَّيل فيه: «**لربِّي الحمد، لربِّي الحمد**»[١] [٢].

فصلٌ

ثُمَّ يكبِّرُ ويخرُّ ساجدًا، ولا يرفع يَدَيه، وكان يَضَع رُكْبَتَيه قبل يَدَيه، هكذا قال عنه وائل بن حجر[٣] [٤].

فصلٌ

ثم كان يسجد علىٰ جبهته وأنفه ويَدَيه ورُكْبَتيه وأطراف قَدَمَيه[٥]، ويستقبل بأصابع يَدَيه ورِجْلَيه القبلة. وكان يعتمد علىٰ إلْيَتَي كَفَّيْه، ويرفع مِرْفَقيه، ويجافي عضديه عن جَنْبَيه، حتىٰ يبدو بياض إبْطَيْه[٦]، ويرفع بطنه عن فَخِذَيه، وفخِذَيه عن ساقيه، ويعتدل في سجوده، ويمكِّن وجهه من الأرض مباشرًا به للمصلَّىٰ، غير ساجدٍ علىٰ كور العمامة.

قال أبو حُمَيْد السَّاعدي -وعشرة من الصَّحابة يسمعون كلامه- : «كان رسول الله ﷺ إذا قام إلىٰ الصَّلاة اعتدل قائمًا، ورفع يَدَيه حتَّىٰ يحاذي بهما مِنْكَبيه، فإذا أراد أنْ يركع رفع يَدَيه حتىٰ يحاذي بهما مَنْكِبَيه، ثُمَّ قال: «**الله أكبر**»، فركع ثُمَّ اعتدل، فلم يصوِّب رأسه ولم يُقْنِعه، ووضع يَدَيه علىٰ ركبتيه، ثُمَّ قال: «**سمع الله لمن حمده**»، ثُمَّ رفع واعتدل، حتىٰ رجع كُلُّ عظمٍ في موضعه، معتدلًا، ثُمَّ هوىٰ ساجدًا، وقال: «الله أكبر»، ثُمَّ جافىٰ وفتح عضدَيْه عن بطنه، وفتح أصابع رِجْلَيه، ثُمَّ

---

(١) أخرجه أبو داود (٨٧٤)، والنسائي (١٠٦٩).
(٢) (ص:٤١٧-٤١٨).
(٣) أخرجه أبوداود (٨٣٨)، والنَّسائي (١٠٨٩)، والتِّرمذي (٢٦٨)، وابن ماجه (٨٨٢).
(٤) (ص:٤١٨).
(٥) أخرجه البخاري (٨١٢)، ومسلم (٤٩٠).
(٦) أخرجه البخاري (٣٩٠)، ومسلم (٤٩٥).

ثَنَىٰ رِجْله اليُسْرىٰ، وقعد عليها، واعتدل، حتىٰ يرجع كُلُّ عظمٍ موضعه معتدلًا، ثُمَّ هَوَىٰ ساجدًا، وقال: «الله أكبر»، ثم ثَنَىٰ رجله وقعد عليها، حتىٰ يرجع كُلُّ عضوٍ إلىٰ موضعه، ثُمَّ نَهَض فصنع في الركعة الثَّانية مثل ذلك، حتىٰ إذا قام من السَّجْدَتين كبَّر ورَفَع يَدَيه حتىٰ يحاذي بهما مَنْكِبَيْه، كما صَنَع حين افتتح الصَّلاة، ثُمَّ صنع كذلك، حتىٰ إذا كانت الرَّكعة التي تنقضي فيها الصَّلاة أخَّر رِجْلَه اليُسرىٰ، وقعد علىٰ شِقِّه متورِّكًا، ثُمَّ سلَّم»(١).

وكان يقول في سجوده: «**سبحان ربِّي الأعلىٰ**»(٢)، ورُوِيَ أنَّه كان يزيد عليها: «**وبحمده**»(٣).

وربَّما قال: «**اللَّهم لك سجدتُّ، وبك آمنت، ولك أسلمت، سجد وجهي للَّذي خلقه، وصوَّره، وشقَّ سمعه وبصره، تبارك الله أحسن الخالقين**»(٤).

وكان يقول أيضًا: «**سبحانك اللَّهمَّ وبحمدك، اللَّهم اغفر لي**»(٥).

وكان يقول: «**سبحانك اللَّهم وبحمدك، لا إله إلَّا أنت**»(٦).

وكان يقول: «**سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ ربُّ الملائكة والرُّوح**»(٧).

وكان يقول: «**اللَّهم اغفر لي ذنبي كُلَّه، دِقَّه وجِلَّه، وأوَّله وآخره، وعلانيته وسِرَّه**»(٨).

---

(١) أخرجه البخاري (٨٢٨)، وأبو داود (٧٣٣)، والترمذي (٣٠٤).
(٢) أخرجه أبوداود (٨٨٦)، والترمذي (٢٦١)، وابن ماجه (٨٩٠).
(٣) أخرجه مسلم (٧٧٢).
(٤) أخرجه مسلم (٧٧١).
(٥) أخرجه البخاري (٧٩٤)، ومسلم (٤٨٤).
(٦) أخرجه مسلم (٤٨٥).
(٧) أخرجه مسلم (٤٨٧).
(٨) أخرجه مسلم (٤٨٣).

وكان يقول: «**اللَّهم إنِّي أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك، لا أحصي ثناءً عليك، أنت كما أثنيت علىٰ نفسك**»[(١)].

وكان يجعل سجوده مناسبًا لقِيامه، ثُمَّ يرفع رأسه قائلًا: «**الله أكبر**»، غير رافعٍ يَدَيه، ثُمَّ يفرش رِجْله اليُسرىٰ، ويجلس عليها، وينصب اليُمْنىٰ، ويضع يَدَيه علىٰ فخذيه، ثُمَّ يقول: «**اللَّهُم اغفر لي، وارحمني، واجبرني، واهدني، وارزقني**». وفي لفظٍ: «**وعافني**» بدل: «**واجبرني**». هذا حديث ابن عباس[(٢)]. وقال حذيفة: كان يقول بين السَّجدَتَين: «**ربِّ اغفر لي**»[(٣)].

وكان يُطِيل هذه الجلسة حتىٰ يقول القائل: «قد أوهم»، أو «قد نسي»[(٤)] [(٥)].

فصْلٌ

ثُمَّ يكبِّر ويسجد، غير رافع يَدَيه، ويصنع في الثَّانية كما صنع في الأولىٰ، ثُمَّ يرفع رأسه مكبِّرًا، وينهض علىٰ صدور قَدَمَيه، معتمدًا علىٰ رُكْبَتيه وفَخِذيه[(٦)].

وقال مالك بن الحويرث: «كان رسول الله ﷺ إذا كان في وترٍ من صلاته لم ينهض حتىٰ يستوي قاعدًا»[(٧)].

فهذه تُسَمَّىٰ جلسة الاستراحة، ولا ريب أنَّه ﷺ فعلها، ولكن هل فَعَلها علىٰ أنَّها من سنن الصَّلاة وهيئاتها كالتَّجافي وغيره، أو لحاجته إليها لما أسنَّ وأخذه

---

(١) أخرجه مسلم (٤٨٦).

(٢) أخرجه أبو داود (٨٥٠)، والترمذي (٢٨٤)، وابن ماجه (٨٩٨).

(٣) أخرجه أبو دواد (٨٧٤)، وابن ماجه (٨٩٧).

(٤) أخرجه البخاري (٨٢١)، ومسلم (٤٧٢).

(٥) (ص:٤٢٥-٤٢٨).

(٦) أخرجه الترمذي (٢٨٨).

(٧) أخرجه البخاري (٨٢٣).

اللَّحم؟ وهذا الثَّاني أظهر.

ولم يكن يرفع يَدَيه في هذا القيام.

وكان إذا اسْتَتَمَّ قائمًا أخذ في القراءة، ولم يسكت، وافتتح قراءته بـ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [الفاتحة:٢]. فإذا جلس في التَّشهد الأول جلس مفترشًا كما يجلس بين السَّجدتين، ويضع يده اليسرىٰ علىٰ ركبته اليسرىٰ، واليمنىٰ علىٰ فخذه اليمنىٰ، وأشار بأصبعه السَّبَّابة، ووضع إبهامه علىٰ أصبعه الوسطىٰ، كهيئة الحلقة، وجعل بصره إلىٰ موضع إشارته، وكان يرفع إصبعه السَّبَّابة ويحنيها قليلًا، يوحِّدُ بها ربَّه عَزَّوَجَلَّ[(١)].

ثُمَّ كان يقول: «**التَّحيَّات لله والصَّلوات والطَّيبات، السَّلام عليك أيُّها النَّبيُّ ورحمة الله وبركاته، السَّلام علينا وعلىٰ عباد الله الصَّالحين، أشهد أنْ لا إله إلَّا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمَّدًا عبده ورسوله**»[(٢)].

وكان يعلِّمُه أصحابه كما يعلِّمُهُم القرآن، وكان أيضًا يقول: «**التَّحيَّات المباركات الصَّلوات الطَّيبات لله**»[(٣)]. هذا تشهُّد ابن عباسٍ، والأوَّل تشهُّد ابن مسعودٍ، وهو أكمل؛ لأنَّ تشهد ابن مسعود يتضمَّن جُمَلًا متغايرةً، وتشهُّد ابن عباسٍ جملةٌ واحدةٌ. وأيضًا فإنَّه في «الصَّحِيحَين»، وفيه زيادة الواو، وكان يعلِّمهم إيَّاه كما يعلِّمُهُم القرآن.

ورَوَىٰ ابن عمر عنه: «**التَّحيَّات لله الصَّلوات الطَّيِّبات**»[(٤)]. وفيه أنواع أُخَر،

---

(١) أخرجه مسلم (٥٧٩).
(٢) أخرجه البخاري (٨٣١)، ومسلم (٤٠٢).
(٣) أخرجه مسلم (٤٠٣).
(٤) أخرجه أبوداود (٩٧١).

كُلُّها جائزةٌ.

وكان يخفِّف هذه الجلسة، حتىٰ كأنَّه جالسٌ علىٰ الرَّضَف[١]. وهي: الحجارة المُحْمَاة، ثُمَّ يكبِّر وينهض، فيصلِّي الثَّالثة والرَّابعة، ويخفِّفُهما عن الأُوْلَيَين، وكان يقرأ فيهما بفاتحة الكتاب، ورُبَّما زاد عليها أحيانًا[٢].

فصلٌ

وكان إذا قَنَت لقومٍ أو علىٰ قومٍ يجعل قنوتَه في الرَّكعة الأخيرة، بعد رفع رأسه من الرُّكوع، وكان أكثر ما يفعل ذلك في صلاة الصُّبح.

قال أنسٌ: «**القنوت في المغرب والفجر**». رواه البخاري[٣]، وقال البراء: «كان رسول الله ﷺ يقنت في صلاة الفجر والمغرب». رواه مسلمٌ[٤].

وقَنَت أبو هريرة في الركعة الأخيرة من الظهر، وعشاء الآخرة، وصلاة الصُّبح، بعدما يقول: «سمع الله لمن حمده» يدعو للمؤمنين، ويلعن الكُفَّار، وقال: «لأُقَرِّبَنَّ بكم صلاة رسول الله ﷺ». ذكره البخاري[٥].

وقال ابن عباسٍ: «قَنَت رسول الله ﷺ شهرًا متتابعًا، في الظُّهر والعصر والمغرب والعشاء والصُّبح، في دُبُر كُلِّ صلاةٍ، إذا قال: "**سمع الله لمن حمده**" من الرَّكعة الأخيرة، يدعو علىٰ حيٍّ من بني سُلَيمٍ، ويؤمِّن مَنْ خَلْفَه». ذكره أحمد[٦]،

(١) أخرجه أبوداود (٩٩٥)، والنسائي (١١٧٦)، والترمذي (٣٦٦).
(٢) (ص:٤٢٨-٤٣٣).
(٣) حديث (١٠٠٤).
(٤) حديث (٦٧٨).
(٥) حديث (٧٩٧).
(٦) في المسند (٢/ ٦٦٧).

وأبو داود[١].

وقد اتَّفقت الأحاديث كما تَرَىٰ علىٰ أنَّه في الرَّكعة الأخيرة بعد الرُّكوع، وأنَّه عارِضٌ لا راتِبٌ[٢].

فصلٌ

وشرع لأمَّته أنْ يصلُّوا عليه في التَّشهُّد الأخير، فيقولوا: «**اللَّهم صلِّ علىٰ محمَّدٍ وعلىٰ آل محمَّدٍ، كما صلَّيْتَ علىٰ آل إبراهيم، إنَّك حميدٌ مجيدٌ، وبارك علىٰ محمَّدٍ وعلىٰ آل محمَّدٍ، كما باركت علىٰ آل إبراهيم، إنَّك حميدٌ مجيدٌ**»[٣].

وأَمَرَهم أنْ يتعوَّذُوا بالله من عذاب النَّار، وعذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات، ومن فتنة المسيح الدَّجَّال[٤].

وعَلَّم الصِّدِّيق أنْ يدعو في صلاته: «**اللَّهم إنِّي ظلمتُ نفسي ظلمًا كثيرًا، وإنَّه لا يغفر الذُّنوب إلَّا أنت، فاغفر لي مغفرةً من عندك، وارحمني، إنَّك أنت الغفور الرَّحيم**»[٥].

وكان من آخر ما يقول بين التَّشهُّد والتَّسليم: «**اللهُمَّ اغفر لي ما قدَّمتُ وما أخَّرتُ، وما أسررتُ وما أعلنتُ، وما أنت أعلم به منِّي، أنت المقدِّم وأنت المؤخِّر، لا إله إلَّا أنت**»[٦].

---

(١) حديث (١٤٤٣).
(٢) (ص:٤٣٣-٤٣٦).
(٣) أخرجه البخاري (٤٧٩٧)، ومسلم (٤٠٦).
(٤) أخرجه البخاري (١٣٧٧)، ومسلم (٥٨٨).
(٥) أخرجه البخاري (٧٧٩)، ومسلم (٢٧٠٥).
(٦) أخرجه مسلم (٧٧١).

ثُمَّ كان يسلِّم عن يمينه: «**السَّلام عليكم ورحمة الله**»، وعن يساره: «**السَّلام عليكم ورحمة الله**»[(١)]. وروىٰ ذلك خمسة عشر صحابيًّا.

وكان إذا سلَّم قال: «**أستغفر الله**» ثلاثًا، «**اللَّهُم أنت السَّلام ومنك السَّلام، تباركت يا ذا الجلال والإكرام**»[(٢)]، «**لا إله إلَّا الله، وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو علىٰ كُلِّ شيءٍ قدير، اللَّهُم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجدِّ منك الجدُّ**»[(٣)]، «**لا إله إلَّا الله، ولا نعبد إلَّا إيَّاه، له النِّعمة وله الفضل وله الثَّناء الحسن، لا إله إلَّا الله مخلصين له الدِّين ولو كره الكافرون**»[(٤)].

وشَرَع لأمته التَّسبيح والتَّحميد والتَّكبير عقيب الصلاة[(٥)]، وأمَرَ عقبة بن عامر أنْ يقرأ بالمعوِّذتين عقيب كلِّ صلاةٍ[(٦)].

وروىٰ عنه النَّسائي[(٧)]، من حديث أبي هريرة أنَّه قال: «**من قرأ آية الكرسي عقيب كُلَّ صلاةٍ لم يمنعه من دخول الجِنَّة إلَّا أنْ يموت**».

وكان يصلِّي قبل الظُّهر أربعًا، وبعدها ركعتين دائمًا[(٨)]، ولمَّا شُغِلَ عنهما يومًا صلَّاهما بعد العصر[(٩)]. ونَدَب إلىٰ أربعٍ بعدها، فقال: «**مَنْ حافظ علىٰ أربع ركعاتٍ قبل الظُّهر وأربع بعدها حرَّمَه الله علىٰ النَّار**». قال الترمذي: «حديثٌ

(١) أخرجه أبوداود (٩٩٦)، والترمذي (٢٩٥)، وابن ماجه (٩١٤).
(٢) أخرجه مسلم (٥٩١).
(٣) أخرجه البخاري (٨٤٤)، ومسلم (٥٩٣).
(٤) أخرجه مسلم (٥٩٤).
(٥) أخرجه البخاري (٨٤٣)، ومسلم (٥٩٥).
(٦) أخرجه النَّسائي (١٣٣٦)، وابن خزيمة (٧٥٥)، وابن حبان (٢٠٠٤).
(٧) في "الكبرىٰ" (٦/ ٣٠)، و "عمل اليوم واللَّيلة" (١٠٠).
(٨) أخرجه البخاري (١١٨٢)، مسلم (٧٣٠).
(٩) أخرجه البخاري (١٢٣٣)، ومسلم (٨٣٤).

صحيحٌ»[١].

ولم يُنْقَل عنه أنَّه كان يُصَلِّي قبل العصر حديثٌ صحيحٌ. وفي «السُّنن»[٢]، عنه أنَّه قال: «**رحم الله امرأً صلَّىٰ قبل العصر أربعًا**».

وكان يصلِّي بعد المغرب ركعتين، وبعد العشاء ركعتين، وقبل الصُّبح ركعتين[٣]؛ فهذه اثنتا عشرة ركعة، سننًا راتبةً، والفرائض سبع عشرة ركعة.

وكان يصلِّي من اللَّيل عشر ركعاتٍ، وربما صلَّىٰ اثنتي عشرة ركعة، ويوتر بواحدة[٤]، فهذه أربعون ركعة، كانت وِرْده دائمًا، الفرائضُ وسننُها، وقيام اللَّيل والوتر. ولم يكن من سُنّته الدُّعاء بعد الصُّبح والعصر، وإنَّما كان من هَدْيه الدُّعاء في الصَّلاة، وقبل السَّلام منها، كما تقدَّم، والله أعلم[٥].

(١) أخرجه الترمذي (٤٢٨)، وأبو دواد (١٢٦٩)، والنَّسائي (١٨١٦).
(٢) أخرجه أبو داود (١٢٧١)، والترمذي (٤٣٠)، وقال: «حسنٌ غريب».
(٣) أخرجه البخاري (١١٨٠)، ومسلم (٧٢٩).
(٤) أخرجه البخاري (١١٣٩)، ومسلم (٧٣٨).
(٥) (ص:٤٤٢-٤٤٧).

فصل: في الموازنة بين ذوق السماع وذوق الصلاة وبيان أن أحد الذوقين مباين للآخر، فإنه كلّما قوي ذوق أحدهما وسلطانه ضعف ذوق الآخر وسلطانه (١):

ولا ريبَ أن الصلاةَ قرةُ عيونِ المحبين، ولـذَّةُ أرواحِ الموحدين، ومحكُّ أحوالِ الصادقين، وميزانُ أحوالِ السالكين، وهي رحمتُه المهداةُ إلىٰ عبيدِه، هداهم إليها، وعرَّفهم بها، رحمةً بهم، وإكرامًا لهم، لينالوا بها شرفَ كرامتِه، والفوزَ بقربِه، لا حاجةً منه إليهم، بل منَّةً وفضلًا منه عليهم، وتعبَّدَ بها القلبَ والجوارحَ جميعًا، وجعلَ حظَّ القلبِ منها أكملَ الحظَّيْنِ وأعظمَهما، وهو إقبالُه علىٰ ربِّه سبحانه وفرحُه وتلذذُه بقربِه وتنعمُه بحبِّه وابتهاجُه بالقيامِ بين يديْه، وانصرافُه حالَ القيامِ بالعبوديَّةِ عن الالتفاتِ إلىٰ غيرِ معبودِه، وتكميلُ حقوقِ عبوديَّتِه حتىٰ تقعَ علىٰ الوجه الذي يرضاه.

ولمَّا امتحنَ سبحانه عبدَه بالشهواتِ وأسبابِها من داخلٍ فيه وخارجٍ عنه، اقتضتْ تمامُ رحمتِه به وإحسانُه إليه أنْ هيَّأ له مأدبةً، قد جمعتْ من جميعِ الألوانِ والتُّحفِ والخِلَعِ والعطايا، ودعاه إليه كلَّ يوم خمسَ مراتٍ، وجعل في كلِّ لونٍ من ألوانِ تلك المأدُبَةِ لذَّةً ومنفعةً ومصلحةً لهذا العبدِ الذي قد دعاه إلىٰ المأدُبَةِ، ليست في اللوْنِ الآخر، لتكمُلَ لذةُ عبدِه في كلِّ لونٍ من ألوانِ العبوديَّةِ، ويُكرمُه بكلِّ صنفٍ من أصنافِ الكرامةِ، ويكونُ كلُّ فعلٍ من أفعالِ تلك العبوديةِ مُكَفِّرًا لمذموم كان يكرهُه بإزائه، ليُثيبه عليه نورًا خاصًا وقوةً في قلبِه وجوارحِه وثوابًا

---

(١) (ص:١٠٩-١٥١).

خاصًّا يوم لقائه.

فيَصدرَ المدعوُّ من هذه المأدُبَةِ وقد أشْبَعَهُ وأرْوَاهُ، وخَلَعَ عليه خِلَعَ القبولِ وأَغْنَاه؛ لأنَّ القلبَ كان قبلُ قد نالَهُ من القحْطِ والجدْبِ والجوعِ والظمأِ والعُرْيِ والسُّقْمِ ما نالَهُ، فأصدَرَهُ من عندِه وقد أعطاهُ من الطعامِ والشرابِ واللِّباسِ والتُّحَفِ ما يُغنيه.

ولمَّا كانت الجدوبُ متتابعةً، وقحطُ النفوسِ متواليًا، جَدَّدَ له الدعوةَ إلىٰ هذه المأدبةِ وقتًا بعد وقتٍ رحمةً منه به، فلا يزالُ مستسقيًا مَنْ بيدِه غيثُ القلوبِ وسَقْيُها، مستمطرًا سحائبَ رحمتِه لئلا ييبَسَ ما أنبتته له تلك من كلأِ الإيمانِ وعُشْبِه وثمارِه، ولئلا تنقطعَ مادَّةُ النباتِ. والقلبُ في استسقاءٍ واستمطارٍ هكذا دائمًا، يشكو إلىٰ ربِّهِ جَدْبه وقَحْطَه وضرورتَه إلىٰ سُقيا رحمتِه وغيثِ بِرِّه، فهذا دَأْبُ العبدِ أيامَ حياتِه.

فإنَّ الغفلةَ التي تنزلُ بالقلبِ هي القحطُ والجدْبُ، فما دامَ في ذكْرِ اللهِ والإقبالِ عليه فغيثُ الرحمةِ واقعٌ عليه كالمطرِ المتدارَكِ، فإذا غفلَ نالَهُ من القحْطِ بحسَبِ غفلتِه قلةً وكثرةً، فإذا تمكَّنتِ الغفلةُ واستحكمتْ صارتْ أرضُه ميتةً، وسَنَتُه جرداءَ يابسةً، وحريقُ الشهواتِ فيها من كلِّ جانبٍ كالسمائمِ.

وإذا تدارك عليه غيثُ الرَّحمةِ اهتزَّتْ أرضُه ورَبَتْ وأنبتتْ من كلِّ زوجٍ بهيجٍ، فإذا ناله القحطُ والجدْبُ كان بمنزلةِ شجرةٍ رطوبتِها ولينِها وثمارِها من الماءِ، فإذا مُنِعتْ من الماءِ يَبِستْ عروقُها، وذَبلتْ أغصانُها، وحُبِست ثمارُها وربما يبست الأغصانُ والشجرةُ، فإذا مددتَ منها غصنًا إلىٰ نفسِك لم يمتدَّ ولم ينقَدْ لك وانكسرَ، فحينئذٍ تقتضي حكمةُ قيِّمِ البستانِ قطعَ تلك الشجرةِ وجعْلَها وقودًا للنَّارِ، فكذلك القلبُ، إنما ييبسُ إذا خلا من توحيدِ اللهِ وحبِّه ومعرفتِه وذكرِه

ودعائه، فتصيبُه حرارةُ النَّفسِ ونارُ الشهواتِ، فتمتنعُ أغصانُ الجوارحِ عن الامتدادِ إذا مددتَها، والانقيادِ إذا قُدتَها، فلا تَصلحُ بعدُ هي والشجرةُ إلا للنَّارِ، ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الزمر:٢٢].

فإذا كان القلبُ ممطورًا بمطرِ الرَّحمةِ كانت الأغصانُ ليِّنَةً منقادةً رطْبةً، فإذا مددتَها إلىٰ أمرِ الله انقادَتْ معك، وأقبلتْ سريعةً ليِّنَةً وادعةً، فجَنيتَ منها من ثمارِ العبوديَّةِ ما يحملُه كلُّ غصنٍ من تلك الأغصانِ، ومادتُها من رطوبةِ القلبِ وريِّه، فالمادةُ تعملُ عملَها في القلبِ والجوارحِ، وإذا يَبِسَ القلبُ تعطلتِ الأغصانُ من أعمالِ البرِّ، لأنَّ مادَّةَ القلبِ وحياتَه قد انقطعت منه، فلم تنتشرْ في الجوارحِ، فتحملُ كلُّ جارحةٍ ثمرَها من العبوديَّةِ.

ولله في كلِّ جارحةٍ من جوارحِ العبدِ عبوديةٌ تخصُّه، وطاعةٌ مطلوبةٌ منها، خُلِقت لأجلِها وهُيِّئَتْ لها. والناسُ بعدَ ذلك ثلاثةُ أقسامٍ:

* **أحدها**: مَن استعملَ تلك الجوارحَ فيما خُلِقتْ له وأريدَ منها، فهذا هو الذي تاجرَ اللهَ بأربحِ التجارةِ، وباعَ نفسَه لله بأربحِ البيعِ، والصلاةُ وُضِعَتْ لاستعمالِ الجوارحِ جميعِها في العبوديَّةِ تبعًا لقيامِ القلبِ بها.

* **الثاني**: مَن استعملَها فيما لم تُخلَق له، ولم يُخلَقْ لها، فهذا هو الذي خابَ سعيُه وخسرِتْ تجارتُه، وفاته رِضَىٰ ربِّه عنه وجزيلُ ثوابِه، وحصلَ علىٰ سخطِهِ وأليمِ عقابِه.

* **الثالث**: مَن عطَّلَ جوارحَه وأماتَها بالبطالةِ، فهذا أيضًا خاسرٌ أعظمَ خسارةٍ، فإن العبدَ خُلِق للعبادةِ والطاعةِ لا للبطالةِ، وأبغضُ الخلقِ إلىٰ اللهِ البطَّالُ الذي لا في شغلِ الدُّنيا ولا في سعي الآخرةِ، فهذا كَلٌّ علىٰ الدُّنْيَا والدِّين.

• **فالأول**: كرجلٍ أُقطِع أرضًا واسعةً، وأُعِين بآلاتِ الحرْثِ والبَذارِ، وأُعطِيَ

ما يكفيها لسقْيِها، فحرثَها وهيَّأها للزراعةِ، وبذَرَ فيها من أنواعِ الغلالِ، وغَرَسَ فيها من أنواعِ الثمارِ والفواكهِ المختلفةِ الأنواعِ، ثم لم يُهمِلها، بل أقامَ عليها الحرسَ وحصَّنَها من المفسدين، وجعل يتعاهدُها كلَّ يومٍ فيصلح ما فسدَ منها، ويَغرِس عوضَ ما يَبِسَ، ويَنفِي دغلَها، ويقطع شَوكَها، ويستعين بمغلِّها علىٰ عمارتِها.

• **والثاني**: بمنزلةِ رجلٍ أخذَ تلك الأرضَ، فجعلَها مأوىٰ للسِّباعِ والهوامِّ ومطرحًا للجِيَفِ والأَنتانِ، وجعلَها معقلًا يأوي إليه كلُّ مُفسدٍ ومؤذٍ ولصٍّ، وأَخذَ ما أُعين به علىٰ بذارِها وصلاحِها، وصرَفَهُ معونةً ومعيشةً لمن فيها من أهلِ الشَّرِّ والفسادِ.

• **والثالث**: بمنزلةِ رجلٍ عطَّلها وأهملَها وأرْسَلَ ذلك الماءَ ضائعًا في القِفارِ والصَّحَاري، فقعدَ مذمومًا محسورًا، فهذا مثالُ أهْلِ الغَفْلةِ، والذي قبلَه مثالُ أهلِ الخيانةِ والجنايةِ، والأولُ مثالُ أهلِ اليقظةِ والاستعدادِ لما خُلِقُوا له.

○ **فالأول**: إذا تحرَّك أو سكنَ أو قام أو قعد أو أكلَ أو شربَ أو نام أو لبِسَ أو نطقَ أو سكتَ كان ذلك كلُّه له لا عليه، وكان في ذكرٍ وطاعةٍ وقرْبَةٍ ومزيدٍ.

○ **والثاني**: إذا فعلَ ذلك كان عليه لا له، وكان في طرْدٍ وإبعادٍ وخُسرانٍ.

○ **والثالث**: إذا فعل ذلك كان في غفلةٍ وبَطَالةٍ وتفريطٍ.

– **فالأول**: يتقلبُ فيما يتقلبُ فيه بحكمِ الطاعةِ والقُرْبةِ.

– **والثاني**: يتقلبُ في ذلك بحكمِ الخيانةِ والتعدِّي، فإنَّ اللهَ لم يُملِّكه ما مَلَّكَهُ ليستعينَ به علىٰ مخالفتِه، فهو جانٍ متعدٍّ خائنٌ لله في نعمِه، معاقَبٌ علىٰ التَّنعُّمِ بها في غير طاعتِه.

– **والثالث**: يتقلبُ في ذلك ويتناولُه بحُكْمِ الغفلةِ ونَهْمَةِ النفسِ وطبيعتِها، لم يبتغِ بذلك رضوانَ اللهِ والتقربَ إليه، فهذا خسرانٌ بيِّنٌ، إذ عطَّل أوقاتَ عمرِه التي

لا قيمةَ لها عن أفضلِ الأرباحِ والتجاراتِ.

فدعا اللهُ سبحانه الموحدين إلىٰ هذه الصَّلواتِ الخمسِ رحمةً منه عليهم، وهيَّأ لهم فيها أنواعَ العبادةِ؛ لينالَ العبدُ من كلِّ قولٍ وفعلٍ وحركةٍ وسكونٍ حظَّه من عطاياه.

وكان سرُّ الصلاةِ ولبُّها إقبالَ القلبِ فيها علىٰ اللهِ وحضورَه بكليَّتِه بين يديْهِ، فإذا لم يُقبلْ عليه واشتغلَ بغيرِه، ولها بحديثِ النَّفْسِ، كان بمنزلةِ وافدٍ وفَدَ إلىٰ بابِ الملِكِ معتذرًا من خطئه وزَلَلِهِ، مستمطرًا لسحائبِ جودِه ورحمتِه، مُسْتَطْعِمًا له ما يُقوتُ قلْبَه، ليقوىٰ علىٰ القيامِ في خدمتِه، فلمَّا وصلَ إلىٰ البابِ ولم يَبْقَ إلا مناجاةُ الملِكِ، التفتَ عن الملِكِ وزاغَ عنه يمينًا وشمالًا أو ولَّاه ظهْرَه، واشتغل عنه بأمقتِ شيءٍ إلىٰ الملِكِ وأقلِّه عنده قدرًا، فآثره عليه، وصيَّره قِبْلَةَ قَلْبِهِ، ومحلَّ توجُّهِهِ، وموضِعَ سِرِّه، وبَعَثَ غِلْمانَهُ وخَدَمَه ليقفوا في طاعةِ الملِكِ، ويعتذروا عنه وينوبوا عنه في الخدمةِ، والملكُ يشاهدُ ذلك ويرىٰ حالَهُ، ومع هذا فكرَمُ الملِكِ وجودُه وسعةُ برِّهِ وإحسانُه يأبىٰ أنْ ينصرفَ عنه تلك الخدمُ والأتباعُ إلا بنصيبِها من رحمتِه وإحسانِه، لكنْ فرْقٌ بين قسمةِ الغنائمِ علىٰ أهلِ السُّهمانِ من الغانمين وبين الرَّضْخ لمن لا سهمَ له، ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ١٩﴾ [الأحقاف:١٩].

واللهُ سبحانه خلقَ هذا النوعَ الإنسانيَّ لنفسِه، واختصَّه، وخلَقَ له كلَّ شيءٍ، وجَعَلَ الصلاةَ سببًا موصلًا له إلىٰ قربِه ومناجاتِه ومحبَّتِه والأنسِ به، وما بينَ الصلاتين تَحْدُثُ له الغفلةُ والجفوةُ والإعراضُ والزَّلاتُ والخطايا، فيُبعِده ذلك عن ربِّه، وينحِّيه عن قربِه، ويصير كأنه أجنبيٌّ عن العبوديَّةِ ليس من جملةِ العبيدِ، وربما ألقىٰ بيدِه إلىٰ أسْرِ العدُوِّ، فأسَرَهُ وغلَّه وقيَّدَه وحبسَه في سجنِ نفسِه وهواه؛ فحظُّه ضيقُ الصدْرِ ومعالجةُ الهمومِ والغمومِ والأحزانِ والحسراتِ، ولا يدري

السببَ في ذلك.

فاقتضت رحمةُ ربِّه الرحيمِ أنْ جعلَ له من عبوديته عبوديةً جامعةً مختلفةَ الأجزاءِ والحالاتِ، بحسبِ اختلافِ الأحداثِ التي جاءت من العبدِ، وبحسبِ شدَّةِ حاجتِه إلىٰ نصيبِه من كلِّ جزءٍ من أجزاءِ تلك العبوديَّةِ.

فبالوضوءِ يتطهرُ من الأوساخِ ويَقدُمُ علىٰ ربِّه متطهرًا، والوضوءُ له ظاهرٌ وباطنٌ، فظاهرُه طهارةُ البدنِ وأعضاءِ العبادةِ، وباطنُه وسرُّه طهارةُ القلبِ من أوساخِه وأدرانِه بالتوبةِ؛ ولهذا يَقْرِنُ سبحانه بين التوبةِ والطَّهارةِ في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ ٢٢٢﴾ [البقرة:٢٢٢]، وشرع النبيُّ ﷺ للمتطهِّرِ بعدَ فراغِه من الوضوءِ أنْ يتشهَّدَ، ثم يقول: «اللَّهمَّ اجعلني من التَّوَّابينَ واجعلْنِي من المتطهرينَ»[(١)] ، فكمَّل له مراتبَ الطَّهارةِ باطنًا وظاهرًا.

فإنه بالشَّهادةِ يتطهرُ من الشِّرْكِ، وبالتوبةِ يتطهرُ من الذنوبِ، وبالماءِ يتطهرُ من الأوساخِ الظاهرةِ، فشرع له أكملَ مراتبِ الطَّهارةِ قبلَ الدُّخولِ علىٰ اللهِ والوقوفِ بين يديْهِ، فلما طَهُرَ ظاهرًا وباطنًا أَذِنَ له بالدخولِ عليه بالقيامِ بين يديه، فخلص من الإباقِ بمجيئِه إلىٰ دارِه ومحلِّ عبوديَّتِه.

ولهذا كان **المجيءُ إلىٰ المسجدِ** من تمامِ عبوديَّةِ الصَّلاةِ الواجبةِ عند قومٍ، والمستحبَّةِ عند آخرين، والعبدُ كان في حالِ غفلتِه كالآبقِ عن ربِّهِ، وقد عطَّلَ جوارحَه وقلبَه عن الخدْمةِ التي خُلِقَ لها، فإذا جاءَ إليه فقد رَجَعَ من إباقِه، فإذا وَقَفَ بين يَدَيْهِ موقفَ العبوديَّةِ والتَّذَلُّلِ والانكسارِ، فقد استدْعَىٰ عَطْفَ سيِّدِه عليه وإقبالَه عليه بعد الإعراضِ.

وأُمِرَ بأنْ **يَستقبلَ بيتَه الحرامَ** بوجْهِهِ، ويستقبلَ اللهَ عَزَّوَجَلَّ بقلْبِه، لينسلخَ مما

(١) أخرجه الترمذي (٥٥).

كان فيه من التَّوَلِّي والإعراضِ، ثم قام بين يديه مقامَ الذَّليلِ الخاضعِ المسكينِ المستعْطِفِ لسيِّدِه، وألقىٰ بيديه مُسَلِّمًا مُسْتَسْلِمًا، ناكسَ الرأسِ، خاشعَ القلبِ، مُطرِقَ الطَّرْفِ، لا يلتفتُ قَلْبُه عنه، ولا طرفُه يمنةً ولا يسرةً، بل قد تَوَجَّهَ بقلبِه كلِّه إليه، وأقْبَلَ بكليَّتِهِ عليه.

ثم **كبَّره** بالتعظيمِ والإجلالِ، وواطأ قلبُه في التكبيرِ لسانَه، فكان اللهُ أكبرَ في قلبِه من كلِّ شيءٍ، وصدَّقَ هذا التكبيرَ بأنه لم يكن في قلبِه شيءٌ أكبرُ من اللهِ يشغلُهُ عنه، فإذا اشتَغَلَ عن اللهِ بغيرِه، وكان ما اشتغَلَ به أهمَّ عندَه من اللهِ = كان تكبيرُه بلسانِه دون قلْبِه، فالتكبيرُ يُخرِجه من لُبْسِ رداءِ التَّكَبُّرِ المنافي للعبوديَّةِ، ويمنعُه من التفاتِ قلبِه إلىٰ غيرِ اللهِ، إذ كانَ اللهُ عندَه وفي قلبِه أكبرَ من كلِّ شيءٍ، فمنعَه حقُّ قولِه «الله أكبر» والقيامُ بعبوديَّةِ التكبيرِ عن هاتين الآفتين، اللتين هما من أعظمِ الحُجُبِ بينه وبين الله.

فإذا قال: «**سُبْحانَكَ اللَّهمَّ وبحمدِكَ**»، وأثنىٰ علىٰ اللهِ بما هو أهلُه، فقد خرجَ عن الغفلةِ التي هي حجابٌ أيضًا بينهُ وبينَ اللهِ، وأتىٰ بالتحيَّةِ والثَّناءِ الذي يخاطِبُ به الملِكَ عند الدخولِ عليه تعظيمًا له وتمجيدًا، ومقدمةً بين يدَيْ حاجتِه، فكان في هذا الثَّناءِ من أَدَبِ العبوديَّةِ وتعظيمِ المعبودِ ما يستجلبُ به إقبالَهُ عليه ورضاه عنه وإسعافَه بحوائِجِهِ.

فإذا شرعَ في القراءةِ قدَّمَ أمامَها **الاستعاذةَ باللهِ من الشيطانِ**، فإنه أحرصُ ما يكونُ علىٰ العبدِ في مثْلِ هذا المقامِ الذي هو أشرفُ مقاماتِه وأنفعُها له في دنياه وآخرتِه، فهو أحرصُ شيءٍ علىٰ صرْفِه عنه واقتطاعِه دونَهُ بالبدَنِ والقلْبِ، فإنْ عجزَ عن اقتطاعِه وتعطيلِه عنه بالبدَنِ، اقتطعَ قلبَهُ، وعطَّله عن القيامِ بين يَدَي الربِّ تعالىٰ، فأمرَ العبدَ بالاستعاذةِ باللهِ منه؛ لِيَسْلَمَ له مقامُه بين يدي ربِّه، وليحيا قلبُه، ويستنيرَ بما يتدبرُه ويتفهمُه من كلامِ سيِّدِه، الذي هو سببُ حياتِه ونعيمِه وفلاحِه،

فالشيطانُ أحرصُ علىٰ اقتطاعِ قلبِه عن مقصودِ التلاوةِ.

ولما علم سبحانه جِدَّ العدوِّ وتفرغَه للعبد وعَجْزَ العبدِ عنه، أمره بأنْ يستعيذَ به سبحانه ويلتجئَ إليه في صرْفِه عنه، فيُكْفَىٰ بالاستعاذةِ مؤونةَ محاربتِه ومقاومتِه، فكأنه قيل له: لا طاقةَ لك بهذا العدوِّ، فاستعذْ بي واستجرني أَكْفِكَه وأمنعْك منه.

وقال لي شيخُ الإسلام قدس الله روحه يومًا: «إذا هاشَ عليك كلبُ الغنمِ فلا تشتغلْ بمحاربتِه ومدافعتِه، وعليك بالراعي فاستغِثْ به، فهو يَصرِف عنك الكلبَ».

فإذا استعاذَ بالله من الشيطانِ بَعُد منه، فأفضىٰ القلبُ إلىٰ معاني القرآن، ووقع في رياضِه المؤنقةِ، وشاهدَ عجائبَه التي تَبْهَرُ العقولَ، واستخرجَ من كنوزِه وذخائرِه ما لا عينٌ رأتْ، ولا أذنٌ سمعتْ، وكان الحائلُ بينه وبين ذلك النفسَ والشيطانَ، والنفسُ منفعلةٌ للشيطانِ سامعةٌ منه، فإذا بَعُد عنها وطُرِد لَمَّ بها الملَكُ وثبَّتها وذكَّرها بما فيه سعادتُها ونجاتُها.

فإذا **أخذَ في قراءةِ القرآنِ** فقد قامَ في مقامِ مخاطبةِ ربِّه ومناجاتِه، فليحذرْ كلَّ الحذرِ من التعرُّضِ لمقتِه وسخطِه أنْ يناجيَهُ ويخاطبَهُ وهو مُعرِضٌ عنه، ملتفتٌ إلىٰ غيرِه، فإنه يستدعي بذلك مقتَه، ويكونُ بمنزلةِ رجلٍ قرَّبه ملِكٌ من ملوكِ الدُّنيا، فأقامه بين يديه، فجعلَ يخاطبُ الملِكَ وقد ولَّاه قفَاه أو التفتَ عنه بوجهِه يَمنةً ويسرةً، فما الظنُّ بمقتِ الملِكِ لهذا؟ فما الظنُّ بالملِكِ الحقِّ المبينِ الذي هو ربُّ العالمين وقيُّومُ السَّمواتِ والأرضين؟

وليقفْ عندَ كلِّ آيةٍ من الفاتحةِ وقفةً ينتظرُ جوابَ ربِّه له، وكأنه سَمِعَهُ يقولُ: حَمِدَنِي عَبْدِي حينما يقولُ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [الفاتحة:٢]، فإذا قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾ وقفَ لحظةً ينتظرُ قولَهُ: أَثْنَىٰ عَلَيَّ عَبْدِي، فإذا قَالَ: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ

ٱلدِّينِ ﴿٤﴾﴾، انْتَظَرَ قولَه: مجَّدني عَبْدِي، فإذا قالَ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ انتظرَ قولَه: هذا بيني وبين عَبْدِي، فإذا قالَ: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾﴾ إلىٰ آخرِها انتظَرَ قولَه: هؤلاء لِعَبْدِي، ولِعَبْدِي ما سأَلَ(١).

ومَنْ ذاقَ طعمَ الصَّلاةِ علمَ أنه لا يقومُ غيرُ التكبيرِ والفاتحةِ مقامَهما، كما لا يقومُ غيرُ القيام والركوعِ والسجودِ مقامَها، فلكلِّ عبوديَّةٍ من عبوديَّةِ الصَّلاةِ سرٌّ وتأثيرٌ وعبوديةٌ لا تحصلُ من غيرِها، ثم لكلِّ آيةٍ من آياتِ الفاتحةِ عبوديةٌ وذوقٌ ووَجْدٌ يخصُّها.

فعند قولِه: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾﴾ [الفاتحة:٢]: تجدُ تحتَ هذه الكلمةِ إثباتَ كلِّ كمالٍ للربِّ تعالىٰ فعلًا ووصفًا واسمًا، وتنزيهَهُ عن كلِّ سوءٍ وعيبٍ فعلًا ووصفًا واسمًا، فهو محمودٌ في أفعالِه وأوصافِه وأسمائه، منزَّهٌ عن العيوبِ والنقائصِ في أفعالِه وأوصافِه وأسمائه، فأفعالُه كلُّها حكمةٌ ورحمةٌ ومصلحةٌ وعدلٌ، لا تخرجُ عن ذلك، وأوصافُه كلُّها أوصافُ كمالٍ ونعوتُ جلالٍ، وأسماؤه كلُّها حسنىٰ.

وحمْدُه قد ملأ الدُّنيا والآخرةَ والسمواتِ والأرضَ وما بينهما وما فيهما، فالكونُ كلُّه ناطقٌ بحمدِه، والخلقُ والأمرُ صادرٌ عن حمدِه وقائمٌ بحمدِه ووُجِدَ بحمْدِه، فحمْدُه هو سببُ وجودِ كلِّ موجودٍ، وهو غايةُ كلِّ موجودٍ، وكلُّ موجودٍ شاهدٌ بحمْدِه، وإرسالُه رسلَه بحمْدِه، وإنزالُه كتبَه بحمْدِه، والجنةُ عُمِّرتْ بأهلِها بحمْدِه، والنارُ عُمِّرتْ بأهلِها بحمْدِه، وما أُطِيعَ إلا بحمْدِه، ولا عُصي إلا بحمْدِه، ولا تسقطُ ورقةٌ إلا بحمْدِه، ولا يتحركُ في الكونِ ذَرَّةٌ إلا بحمْدِه.

وهو المحمودُ لذاتِه، وإنْ لم يحمَدْهُ العبادُ، كما أنه الواحدُ الأحدُ ولو لم

---

(١) أخرجه مسلم (٣٩٥).

يُوحِّدْهُ العبادُ، والإلهُ الحقُّ وإنْ لم يُؤلِّهوه، وهو سبحانه الذي حَمِد نفسَه علىٰ لسانِ القائلِ: الحمدُ لله ربِّ العالمينَ، كما قالَ النبيُّ ﷺ: «إنَّ اللهَ تعالىٰ قالَ علىٰ لسانِ نبيِّه: سَمِعَ اللهُ لمن حَمِدَهُ»[(١)].

فهو الحامدُ لنفسِه في الحقيقةِ علىٰ لسانِ عبدِه، فإنه الذي أَجْرَىٰ الحمْدَ علىٰ لسانِه وقلبِه، وإجراؤه بحمْدِه، فله الحمدُ كلُّه، وله الملْكُ كلُّه، وبيدِه الخيرُ كلُّه، وإليه يُرجَعُ الأمرُ كلُّه، فهذه المعرفةُ من عبوديَّةِ الحمْدِ.

ومن عبوديَّتِه أيضًا أنْ يَعلمَ أنَّ حمْدَه لربِّه سبحانه نعمةٌ منه عليه، يستحقُّ عليها الحمدَ، فإذا حَمِدَهُ علىٰ هذه النِّعمةِ استوجَبَ عليه حَمْدًا آخرَ علىٰ نِعمةِ حمْدِه، وهلمَّ جرًّا. فالعبدُ ولو استنفدَ أنفاسَه كلَّها في حمدِه علىٰ نعمةٍ من نعمِه، فإنَّ ما يجبُ له من الحمْدِ ويستحِقُّه فوقَ ذلك وأضعافُه، ولا يُحصِي أحدٌ البتة ثناءً عليه بمحامدِه.

ومن عبوديَّةِ العبْدِ شهودُ العبْدِ لعجزِه عن الحمْدِ، وأنْ ما قامَ به منه فالربُّ سبحانه هو المحمودُ عليه، إذ هو مُجرِيه علىٰ لسانِه وقلبِه.

ومن عبوديَّتِه تسليطُ الحمْدِ علىٰ تفاصيلِ أحوالِ العبدِ كلِّها ظاهرةً وباطنةً علىٰ ما يحبُّ العبْدُ وما يكرَهُه، فهو سبحانه المحمودُ علىٰ ذلك كلِّه في الحقيقةِ، وإنْ غابَ عن شهودِ العبْدِ.

ثم لقوله: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [الفاتحة:٢]: من العبوديَّةِ شهودُ تفرُّدِه سبحانه بالربوبيةِ، وأنه كما أنه ربُّ العالمين وخالقُهم ورازقُهم ومُدبِّرُ أمورِهم ومُوجِدُهم ومُفنِيهم، فهو وحدَه إلهُهم ومعبودُهم وملجأُهم ومفزعُهم عند النوائبِ، فلا ربَّ غيره، ولا إلهَ سواه.

---

(١) أخرجه مسلم (٤٠٤).

ولقوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾: عبوديةٌ تخصُّها، وهي شهودُ عموم رحمتِه، وسعتِها لكلِّ شيءٍ، وأخْذِ كلِّ موجودٍ بنصيبِه منها، ولا سيما الرحمةُ الخاصَّةُ التي أقامت عبدَه بين يديه في خدمته، يناجيه بكلامِه ويتملَّقه ويسترحمُه ويسألُه هدايتَه ورحمتَه، وإتمامَ نعمتِه عليه، فهذا من رحمتِه بعبدِه، فرحمتُه وسعتْ كلَّ شيءٍ، كما أنَّ حمدَه وسعَ كلَّ شيءٍ.

ثم يعطي قوله: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾: عبوديتَها، ويتأملُ تَضَمُّنَها لإثباتِ المعادِ، وتفرُّدَ الربِّ فيه بالحُكمِ بين خلقِه، وأنه يومٌ يَدينُ فيه العبادُ بأعمالِهم في الخيرِ والشَّرِّ، وذلك من تفاصيلِ حمدِه وموجِبِه.

ولما كان قولُه: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ إخبارًا عن حمدِه تعالىٰ قالَ اللهُ: حَمِدَنِي عَبْدِي، ولما كانَ قولُه: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾ إعادةً وتكريرًا لأوصافِ كمالِه قالَ: أَثْنَىٰ عَلَيَّ عَبْدِي، فإنَّ الثناءَ إنما يكونُ بتكرارِ المحامدِ وتَعدادِ أوصافِ المحمودِ، ولما وصفه سبحانه بتفرُّدِه بمُلْكِ يوم الدِّينِ وهو الملكُ الحقُّ المتضمِّنُ لظهورِ عدْلِه وكبريائه وعظمتِه ووحدانيتِه وصدْقِ رسلِه = سمَّىٰ هذا الثناءَ مجْدًا، فقال: مجَّدَنِي عَبْدِي، فإنَّ التمجيدَ هو الثناءُ بصفاتِ العظمَةِ والجَلالِ.

فإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾: انتظرَ جوابَ ربِّه له: هذا بيني وبين عَبْدي ولعبدي ما سألَ، وتأملَ عبوديَّةَ هاتينِ الكلمتينِ وحقوقَهما، وميَّزَ بين الكلمةِ التي لله والكلمةِ التي للعبدِ، وفَقِهَ سرَّ كوْنِ إحداهما للهِ والأخرىٰ للعبدِ، وميَّزَ بين التوحيدِ الذي تقتضيه كلمةُ «إِيَّاكَ نَعْبُدُ» والتوحيدِ الذي تقتضيه كلمةُ «إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ»، وفَقِهَ سرَّ كوْنِ هاتينِ الكلمتينِ في وسَطِ السورةِ بين نَوْعَي الثَّناءِ قبلَهما والدعاءِ بعدَهما، وفَقِهَ تقديمَ «إِيَّاكَ نَعْبُدَ» علىٰ «إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ»، وتقديمَ المعمولِ علىٰ الفعلِ، مع أنَّ الإتيانَ به مؤخرًا أوْجزَ وأخْصَرَ، وسرَّ إعادةِ الضميرِ

مرةً بعد مرةٍ، وعَلِمَ ما تَدفَعُ كلُّ واحدةٍ من الكلمتينِ من الآفَةِ المنافيةِ للعبوديَّةِ، وكيف تُدخِلُه الكلمتانِ في صريحِ العبوديَّةِ، وكيف يدورُ القرآنُ من أولِه إلىٰ آخرِه علىٰ هاتينِ الكلمتينِ، بل كيف يدورُ عليهما الخلقُ والأمرُ والثوابُ والعقابُ والدنيا والآخرةُ، وكيف تضمَّنَتا لأجلِّ الغاياتِ وأكملِ الوسائلِ، وكيف جِيءَ بهما بضميرِ الخطابِ والحضورِ دونَ ضميرِ الغائبِ.

ثم يتأمَّلُ ضرورتَه وفاقتَه إلىٰ قولِه: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦﴾: الذي مضمونُه معرفةُ الحقِّ وقصدُه وإرادتُه والعملُ به والثَّباتُ عليه والدَّعوةُ إليه والصَّبْرُ علىٰ أذَىٰ المدعُوِّ؛ فباستكمالِ هذه المراتبِ الخمْسِ تُستكْمَلُ الهدايةُ، وما نَقَصَ منها نَقَصَ من هدايتِه.

ولما كان العبدُ مفتقرًا إلىٰ هذه الهدايةِ في ظاهرِه وباطنِه في جميعِ ما يأتيه ويذَرُه:

- من أمورٍ قد فعلَها علىٰ غيرِ الهدايةِ علمًا وعملًا وإرادةً، فهو محتاجٌ إلىٰ التوبةِ منها، وتوبتُه منها من الهدايةِ.
- وأمورٍ قد هُدي إلىٰ أصلِها دون تفصيلِها، فهو محتاجٌ إلىٰ هدايةِ تفاصيلِها.
- وأمورٍ قد هُدي إليها من وجهٍ دون وجهٍ، فهو محتاجٌ إلىٰ تمامِ الهدايةِ فيها، ليتمَّ له الهدايةُ ويزدادُ هدىً إلىٰ هداه.
- وأمورٍ يحتاجُ فيها إلىٰ أنْ يحصُلَ له من الهدايةِ في مستقبَلِها مثلُ ما حصلَ له في ماضيها.
- وأمورٍ هو خالٍ عن اعتقادٍ فيها، فهو محتاجٌ إلىٰ الهدايةِ فيها اعتقادًا.
- وأمورٍ يعتقِدُ فيها خلافَ ما هي عليه، فهو محتاجٌ إلىٰ هدايةٍ تَنْسَخُ من قلْبِه

ذلك الاعتقادَ، وتُثبِت فيه ضدَّه.

• وأمورٍ من الهدايةِ هو قادرٌ عليها، ولكنْ لم يُخْلَقْ له إرادةُ فعلِها، فهو محتاجٌ في تمامِ الهدايةِ إلىٰ خَلْقِ إرادةٍ يفعلُها بها.

• وأمورٍ منها هو غيرُ قادرٍ علىٰ فعلِها مع كونِه مريدًا، فهو محتاجٌ في هدايتِه إلىٰ إقدارِه عليها.

• وأمورٍ منها هو غيرُ قادرٍ عليها ولا مريدٌ لها فهو محتاجٌ إلىٰ خَلْقِ القدرةِ والإرادةِ له لتَتِمَّ له الهدايةُ.

• وأمورٍ هو قائمٌ بها علىٰ وجهِ الهدايةِ اعتقادًا وإرادةً وعملًا، فهو محتاجٌ إلىٰ الثباتِ عليها واستدامتِها.

= كانت حاجتُه إلىٰ سؤالِ الهدايةِ أعظمَ الحاجاتِ، وفاقتُه إليها أشدَّ الفَاقاتِ، فَفَرَضَ عليه الربُّ الرحيمُ هذا السؤالَ كلَّ يومٍ وليلةٍ في أفضلِ أحوالِه وهي الصلواتُ الخمسُ مراتٍ متعددةٍ؛ لشدةِ ضرورتِه وفاقتِه إلىٰ هذا المطلوبِ، ثم بيَّن أنَّ سبيلَ أهلِ هذه الهدايةِ مغايرٌ لسبيلِ أهلِ الغضَبِ وأهلِ الضَّلالِ، فانقسمَ الخَلْقُ إذن ثلاثةُ أقسامٍ بالنسبةِ إلىٰ هذه الهدايةِ:

* **مُنعَمٌ عليه**: بحصولِها واستمرارِها، وحظُّه من النِّعَمِ بحسبِ حظِّهِ من تفاصيلِها وأقسامِها.

* **وضالٌّ**: لم يُعطَ هذه الهدايةَ ولم يُوفَّق لها.

* **ومغضوب عليه**: عرفَها ولم يُوفَّق للعملِ بموجبِها.

فالأول: المُنْعَمُ عليه قائمٌ بالهدىٰ ودينِ الحقِّ علمًا وعملًا، والضالُّ: منسلخٌ عنه علمًا وعملًا، والمغضوبُ عليه: عارفٌ به علمًا، منسلِخٌ منه عملًا، واللهُ

الموفِّقُ للصَّوابِ.

[و] شرعَ له **التأمينَ** عندَ هذا الدُّعاءِ؛ تفاؤلًا بإجابتِه وحصولِه، وطابعًا عليه وتحقيقًا له، ولهذا اشتدَّ حسدُ اليهودِ للمسلمينَ عليه حين سمعوهم يَجْهرون به في صلاتِهم.

ثمَّ شرعَ له **رفْعَ اليدينِ عند الرُّكوعِ**؛ تعظيمًا لأمرِ الله، وزينةً للصلاةِ، وعبوديةً خاصةً لليدينِ كعبوديَّةِ باقي الجوارحِ، واتباعًا لسُنَّةِ رسولِ اللهِ ﷺ، فهو حِلْيةُ الصلاةِ، وزينتُها، وتعظيمٌ لشعائرِها.

ثمَّ شرعَ له **التكبيرَ الذي هو في انتقالاتِ الصَّلاةِ** من ركنٍ إلىٰ ركنٍ، كالتلبيةِ في انتقالاتِ الحاجِّ من مَشْعَرٍ إلىٰ مَشْعَرٍ، فهو شَعَارُ الصَّلاةِ، كما أنَّ التلبيةَ شَعَارُ الحجِّ، ليعلمَ العبدُ أنَّ سرَّ الصلاةِ هو تعظيمُ الربِّ تعالىٰ وتكبيرُه بعبادتِه وحدَه.

ثمَّ شرعَ له أنْ **يَخْضَعَ للمعبودِ سبحانه بالركوعِ خضوعًا** لعظمتِه واستكانةً لهيبتِه وتذللًا لعزَّتِه، فَثَنَىٰ العبدُ له صُلْبَهُ، ووضعَ له قامتَه، ونكَّسَ له رأسَهُ، وحَنَىٰ له ظهرَه، معظِّمًا له ناطقًا بتسبيحِه المقترنِ بتعظيمِه؛ فاجتمعَ له خضوعُ القلْبِ وخضوعُ الجوارحِ وخضوعِ القولِ، علىٰ أتمِّ الأحوالِ، وجمعَ له في هذا الذِّكْرِ بين الخضوعِ والتعظيمِ لربِّهِ والتنزيهِ له عن خضوعِ العبيدِ، وأنَّ الخضوعَ وصفُ العبدِ، والعظمةَ وصفُ الربِّ.

وتمامُ عبوديَّةِ الركوعِ أنْ يتصاغرَ العبدُ ويتضاءلَ بحيثُ يمحو تصاغُرُهُ كلَّ تعظيمٍ منه لنفسِه، ويُثْبِت مكانَه تعظيمَه لربِّه، وكلما استولىٰ علىٰ قلْبِه تعظيمُ الربِّ ازدادَ تصاغُره هو عندَ نفسِه؛ فالركوعُ للقلبِ بالذَّاتِ والقصْدِ، وللجوارحِ بالتَّبَعِ والتَّكْملَةِ.

ثمَّ شرعَ له أن **يحمدَ ربَّه ويُثني عليه بآلائه عند اعتدالِه وانتصابِه**، ورجوعِه إلىٰ

أحسنِ هيأته منتصبَ القامةِ معتدلَها، فيحمدُ ربَّه ويُثني عليه بأنْ وفَّقَهُ لذلك الخضوعِ.

ثمَّ نَقَلَهُ منه إلىٰ مقامِ **الاعتدالِ والاستواءِ** بين يديه، واقفًا في خدمَتِه، كما كانَ في حالِ القراءةِ، ولهذا شرعَ له من **الحمدِ والثَّناءِ والمجْدِ** نظيرَ ما شرعَ له في حالِ القراءةِ من ذلك، ولهذا الاعتدالُ ذوقٌ خاصٌّ وحالٌ يحصلُ للقلبِ سوىٰ ذوقِ الرُّكوعِ وحالِه، وهو ركنٌ مقصودٌ لذاتِه، كركنِ الرُّكوعِ والسُّجودِ سواءً، ولهذا كان رسولُ الله ﷺ يُطيلُه كما يُطيلُ الركوعَ والسُّجودَ، ويُكثرُ فيه من الثَّناءِ والحمْدِ والتمجيدِ، وكان في قيامِ الليلِ يُكثِر فيه من قَوْلِ: «لربِّي الحمْدُ، لربِّي الحمْدُ»[(١)]، يكرِّرُها.

ثمَّ شرعَ له أنْ **يُكبِّرَ ويَخِرَّ ساجدًا**، ويُعطي في سجودِه كلَّ عُضْوٍ من أعضائه حظَّهُ من العبوديَّةِ، فيضعُ ناصيَتَهُ بالأرضِ بين يَدَي ربِّه مسندةً، راغمًا له أَنْفَهُ، خاضِعًا له قَلْبَهُ، ويَضَعُ أشرفَ ما فيه وهو وجْهَهُ بالأرضِ ولاسيما علىٰ الترابِ، مُعفِّرًا له بين يدي سيِّدِه، راغمًا له أنفَهُ، خاضعًا له قلْبَه وجوارحَه، متذللًا لعظمتِه، خاضعًا لعزَّتِه، مستكينًا بين يديْهِ، أذلَّ شيءٍ وأكسرَه لربِّه تعالىٰ، مسبِّحًا له بعلوِّه في أعظمِ سُفولِه، قد صارت أعاليه مَلْوِيَّةً لأسافِلِه؛ ذلًّا وخضوعًا وانكسارًا، وقد طابَقَ قلبُه حالَ جسمِه، فسجدَ القلبُ كما سَجَدَ الوجْهَ، وقد سَجَدَ معه أنفُه ويداه وركبتاه ورجلاه، وشرعَ له أنْ يُقِلَّ فَخِذَيْه عن ساقَيْهِ، وبطنَه عن فَخِذَيْهِ، وعَضُدَيْهِ عن جَنْبَيْهِ؛ ليأخذَ كلُّ جزءٍ منه حظَّه من الخضوعِ، ولا يحمِلُ بعضُه بعضًا، فأحْرِ به في هذه الحالِ أنْ يكونَ أقربَ إلىٰ ربِّه منه في غيرِها من الأحوالِ، كما قالَ النبيُّ ﷺ: «أقربُ ما يكونُ العبدُ من ربِّه وهو ساجدٌ»[(٢)]، ولما كان سجودُ القلْبِ خضوعَه

---

(١) أخرجه أحمد (١٠/ ٥٥٥٧) وأبو داود (٨٧٤).

(٢) أخرجه مسلم (٤٨٢).

التامَّ لربِّه أمكنَه استدامةُ هذا السُّجودِ إلىٰ يومِ اللِّقاءِ، كما قيلَ لبعضِ السَّلَفِ: هل يسجدُ القلبُ؟ قال: إي واللهِ! سجدةً لا يرفعُ رأسَه منها حتىٰ يَلْقَىٰ اللهَ.

ولما بُنِيت الصلاةُ علىٰ خمسٍ: القراءةِ، والقيامِ، والركوعِ، والسجودِ، والذكرِ، سُمِّيت باسمِ كلِّ واحدٍ من هذه الخمسِ، فسميت **قيامًا**؛ كقوله تعالىٰ: ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢﴾ [المزمل:٢]، **وقراءةً**؛ كقوله: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ۝٧٨﴾ [الإسراء:٧٨]، **وركوعًا**؛ كقوله تعالىٰ: ﴿وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ۝٤٣﴾ [البقرة:٤٣]، **وسجودًا**؛ كقوله: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۝٩٨﴾ [الحجر:٩٨]، **وذكرًا**؛ كقوله: ﴿إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة:٩].

وأشرفُ أفعالِها السجودُ، وأشرفُ أذكارِها القراءةُ، وأولُ سورةٍ أُنزلتْ علىٰ النبيِّ ﷺ افْتُتِحتْ بالقراءةِ، وخُتْمتْ بالسجودِ، ووُضعَتِ الرَّكعةُ علىٰ ذلك، أوَّلُها قراءةٌ وآخرُها سجودٌ.

ثمَّ شرعَ له أنْ **يَرْفَعَ رأسَه ويعتدلَ جالسًا**، ولما كان هذا الاعتدالُ محفوفًا بسجودين: سجودٍ قبلَه وسجودٍ بعدَه، فينتقلُ من السجودِ إليه ثم منه إلىٰ السجودِ، = كان له شأنٌ؛ فكان رسولُ اللهِ ﷺ يُطيلُه بقدْرِ السُّجودِ، ويتضرعُ فيه إلىٰ ربِّه ويستغفرُه، ويسألُه رحمتَه وهدايتَه ورزقَه وعافيتَه، وله ذوقٌ خاصٌّ وحالٌ للقلبِ غيرُ ذوقِ السجودِ وحالِه؛ فالعبدُ في هذا القعودِ قد تمثَّل جاثيًا بين يدي ربِّه، مُلقيًا نفسَه بين يديه، معتذرًا إليه مما جناه، راغبًا إليه أن يغفرَ له ويرحمَه مستعديًا علىٰ نفسِه الأمَّارةِ بالسُّوءِ. وكان النبيُّ ﷺ يكررُ الاستغفارَ في هذه القعدةِ، ويُكثرُ رغبتَه إلىٰ اللهِ فيها.

فمثِّلْ نفسَك بمنزلةِ غريمٍ عليه حقُ اللهِ وأنت كفيلٌ به، والغريمُ مماطلٌ مخادعٌ، وأنت مطلوبٌ بالكفالةِ، والغريمُ مطلوبٌ بالحقِّ، فأنت تستعدي عليه

حتىٰ تستخرجَ ما عليه من الحقِّ لتتخلَّصَ من المطالبةِ. والقلبُ شريكُ النَّفسِ في الخيرِ والشرِّ والثوابِ والعقابِ والحمْدِ والذَّمِّ، والنفسُ من شأنِها الإباقُ والخروجُ من رِقِّ العبوديَّةِ، وتضييعُ حقوقِ اللهِ التي قِبَلها، والقلبُ شريكُها إنْ قَوِيَ سلطانُها وأسيرُها، وهي شريكُه وأسيرُه إنْ قَوِيَ سلطانُه.

فشرعَ للعبدِ إذا رفعَ رأسَهُ من السُّجودِ أنْ يجثوَ بين يدي اللهِ مسْتَعْديًا علىٰ نفسِه، معتذرًا إلىٰ ربِّه مما كان منها، راغبًا إليه أنْ يرحمَه ويغفرَ له ويهديَه ويرزقَه ويعافيَه. وهذه الخمسُ هي جِماعُ خيرِ الدُّنيا والآخرةِ، فإنَّ العبدَ محتاجٌ بل مضطرٌّ إلىٰ تحصيلِ مصالحِه في الدُّنيا وفي الآخرةِ، ودفْعِ المضارِّ عنه في الدُّنيا والآخرةِ، وقد تضمَّنَهَا هذا الدعاءُ، فإنَّ الرزقَ يَجلِبُ له مصالحَ دنياه، والعافيةَ تدفعُ عنه مضارَّها، والهدايةَ تَجلِب له مصالحَ أخراه، والمغفرةَ تدفعُ عنه مضارَّها، والرحمةَ تجمعُ ذلك كله.

وشرعَ له أنْ **يعودَ ساجدًا** كما كانَ، ولا يكتفي منه بسجدةٍ واحدةٍ في الركعةِ كما اكتفىٰ منه بركوعٍ واحدٍ، لفضْلِ السجودِ وشرفِه وموقعِه من اللهِ، حتىٰ إنَّه أقربُ ما يكونُ إلىٰ عبدِه وهو ساجدٌ، وهو أدخلُ في العبوديَّةِ وأعرقُ فيها من غيرِه، ولهذا جُعِلَ خاتمةَ الركعةِ، وما قبلَهُ كالمقدمةِ بين يديه، فمحلُّه من الصلاةِ محلُّ طوافِ الزيارةِ، وما قبله من التعريفِ وتوابعِه مقدماتٌ بين يديه، وكما أنَّه أقربُ ما يكونُ العبدُ من ربِّه وهو ساجدٌ، فكذلك أقربُ ما يكون منه في المناسكِ وهو طائفٌ؛ ولهذا قال بعضُ الصحابةِ لمن كلَّمه في طوافِه بأمرٍ من الدُّنيا: «أتقولُ هذا ونحن نتراءىٰ لله في طوافِنا؟»؛ ولهذا واللهُ أعلمُ جُعِلَ الركوعُ قبلَ السُّجودِ تدريجًا وانتقالًا من الشيءِ إلىٰ ما هو أعلىٰ منه.

وشرعَ له **تكريرَ هذه الأفعالِ والأقوالِ**، إذ هي غذاءُ القلبِ والروحِ التي لا قِوامَ لهما إلَّا بها، فكان تكريرُها بمنزلةِ تكريرِ الأكلِ حتىٰ يُشبِع، والشرب حتىٰ

يُروِي، فلو تناولَ الجائعُ لقمةً واحدةً وأقلعَ عن الطعامِ، ماذا كانت تُغني عنه؟

ولهذا قال بعضُ السَّلفِ: «مَثَلُ الذي يصلي ولا يطمئنُّ في صلاتِه كمثلِ الجائعِ، إذا قُدِّم إليه طعامٌ فتناولَ منه لقمةً أو لقمتين، ماذا تُغنِي عنه؟».

هذا، وفي إعادةِ كلِّ قولٍ أو فعلٍ من العبوديَّةِ والقُرَبِ، وتنزيلِ الثانيةِ منزلةَ الشُّكرِ على الأولى، وحصولِ مزيدٍ منها ومعرفةٍ وإقبالٍ وقوةِ قلبٍ وانشراحِ صدرٍ وزوالِ دَرَنٍ ووسخٍ عن القلبِ = بمنزلةِ غسْلِ الثَّوبِ مرةً بعد مرةٍ، فهذه حكمةُ الله التي بهرتِ العقولَ في خلقِه وأمرِه، ودلَّت على كمالِ رحمتِه ولطْفِه.

فلما قضى صلاتَه وأكملَها ولم يبقَ إلا الانصرافُ منها، شرعَ له **الجلوسَ بين يدي ربِّه**، مُثنيًا عليه بأفضلِ **التحيَّاتِ** التي لا تَصْلحُ إلا له، ولا تَليقُ بغيرِه.

ولما كانَ عادةُ الملوكِ أنْ يُحيَّوا بأنواعِ التحيَّاتِ من الأفعالِ والأقوالِ المتضمِّنَةِ للخضوعِ والثَّناءِ وطلبِ البقاءِ ودوامِ الملْكِ، فمنهم من يُحيَّى بالسجودِ، ومنهم من يُحيَّى بالثناءِ عليه، ومنهم من يُحيَّى بطلبِ البقاءِ والدَّوامِ له، ومنهم من يُجمع له ذلك كلُّه = فكان الملِكُ الحقُّ سبحانه أولى بالتحيَّاتِ كلِّها من جميعِ خلقِه، وهي له بالحقيقةِ، ولهذا فُسِّرت التحيَّاتُ بالملْكِ، وفسرت بالبقاءِ والدَّوامِ، وحقيقتُها ما ذكرتُه، وهي تحيَّاتُ الملِكِ، فالملِكُ الحقُّ المبينُ أولى بها.

فكلُّ تحيةٍ يُحيَّى بها ملِكٌ من سجودٍ أو ثناءٍ أو بقاءٍ ودوامٍ فهي للهِ عزَّوجلَّ، ولهذا أتى بها مجموعةً معرَّفةً باللامِ إرادةَ العمومِ، وهي جمع تحية، وهي تَفْعِلَة من الحياة، وإذا كان أصلُها من الحياةِ فالمطلوبُ بها لمن يُحيَّا بها دوامُ الحياةِ.

وكانوا يقولون لملوكِهم: لك الحياةُ الباقيةُ، ولك الحياةُ الدائمةُ، وبعضُهم يقول: عشرةَ آلافِ سنةٍ، واشتقَّ منها: أدامَ اللهُ أيامَك، وأطالَ اللهُ بقاءَك، ونحوَ ذلك مما يُرادُ به دوامُ الحياةِ والمُلْكِ، وذلك لا ينبغي إلا للحيِّ الذي لا يموتُ،

وللمَلِكِ الذي كلُّ مُلكٍ زائلٌ غيرُ ملكِه.

ثمَّ عَطَفَ عليها «**الصَّلَواتِ**» بلفظِ الجمعِ والتعريفِ؛ ليشمَلَ كلَّ ما أُطْلِقَ عليه لفظِ الصَّلاةِ خصوصًا وعمومًا، فكلُّها للهِ، لا تنبغي إلا له، فالتحياتُ له مُلْكًا، والصلواتُ له عبوديةً واستحقاقًا، فالتحياتُ لا تكونُ إلا له، والصلواتُ لا تنبغي إلا له.

ثم عَطَفَ عليها «**الطَّيِّبَاتِ**» كذلك، وهذا يتناولُ أمرين: الوصفَ والملكَ.

فأما الوصفُ فإنَّه سبحانه طيبٌ، وكلامُه طيبٌ، وفعلُه كلُّه طيبٌ، ولا يصدُرُ منه إلا الطَّيِّبُ، ولا يُضافُ إليه إلا الطَّيِّبُ، ولا يَصعدُ إليه إلا الطيبُ؛ فالطيباتُ له وصفًا وفعلًا وقولًا ونسبةً، وكلُّ طيبٍ مضافٌ إليه، وكلُّ مضافٍ إليه طيبٌ، فله الكلماتُ الطيباتُ والأفعالُ الطيباتُ، وكلُّ مضافٍ إليه كبيتِه وعبدِه وروحِه وناقتِه وجنتِه فهي طيباتٌ.

وأيضًا فمعاني الكلماتِ الطيِّباتِ لله وحده، فإنَّ الكلماتِ الطيباتِ تتضمنُ تسبيحَه وتحميدَه وتكبيرَه وتمجيدَه والثناءَ عليه بآلائه وأوصافِه، فهذه الكلماتُ الطيباتُ التي يُثنَىٰ عليه بها ومعانيها له وحدَه لا يَشرَكُه فيها غيرُه، كسبحانَكَ اللهمَّ وبحمدِكَ وتباركَ اسمُكَ وتعالىٰ جَدُّكَ ولا إلهَ غيرَك، ونحو: سبحانَ اللهِ والحمدُ للهِ ولا إلهَ إلا اللهُ واللهُ أكبرُ، ونحو: سبحانَ اللهِ وبحمدِه سبحانَ اللهِ العظيم.

فكلُّ طيبٍ فلهُ وعندَه ومنه وإليه، وهو طيِّبٌ لا يقبلُ إلا طيِّبًا، وهو إلهُ الطَّيِّبينَ، وجيرانُه في دارِ كرامتِه هم الطَّيِّبُونَ.

فتأملْ أطيبَ الكلماتِ بعد القرآنِ كيف لا تَنبغي إلا للهِ، وهي:

«**سبحانَ الله، والحمدُ لله، ولا إلهَ إلا الله، واللهُ أكبرُ، ولا حولَ ولا قوةَ إلا بالله**».

• فإنَّ «سبحان الله» تتضمنُ تنزيهَه عن كلِّ نقصٍ وعيبٍ وسُوءٍ، وعن خصائصِ المخلوقينَ وشَبَهِهم. و«الحمد لله» تتضمنُ إثباتَ كلِّ كمالٍ له قولًا وفعلًا ووصفًا، علىٰ أتمِّ الوجوه وأكملِها أزلًا وأبدًا.

• و«لا إله إلا الله» تتضمنُ انفرادَهُ بالإلهيَّةِ، وأنَّ كلَّ معبودٍ سواه فباطلٌ، وأنه وحدَه الإلهُ الحقُّ، وأنه مَنْ تألَّه غيرَه فهو بمنزلةِ من اتخذَ بيتًا من بيوتِ العنكبوتِ يأوي إليه ويسكنه.

• و«الله أكبر» تتضمنُ أنه أكبرُ من كلِّ شيءٍ وأجلُّ وأعظمُ وأعزُّ وأقوىٰ وأقدرُ وأعلمُ وأحكمُ. فهذه الكلماتُ الطَّيِّباتُ لا تصلحُ هي ومعانيها إلا لله وحدَه.

ثم شرعَ له أنْ **يُسلِّمَ** علىٰ عبادِ اللهِ الذين اصطفَىٰ بعدَ تقدُّمِ الحمدِ والثَّناءِ عليه بما هو أهلُه، فطابقَ ذلك قولَه: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ [النمل:٥٩]، وكأنه امتثالٌ له، وأيضًا فإنَّ هذا تحيةُ المخلوقِ، فشُرعت بعد تحيَّةِ الخالقِ، وقدَّمَ في هذه التحيةِ أولىٰ الخلْقِ بها، وهو النبيُّ ﷺ الذي نالت أمتُه علىٰ يدِه كلَّ خيرٍ، وعلىٰ نفسِه بعدَه، وعلىٰ سائرِ عبادِ الله الصالحينَ، وأخصُّهم بهذه التحيةِ الأنبياءُ، ثم أصحابُ رسولِ الله ﷺ، مع عمومِها لكلِّ عبدٍ لله صالحٍ في الأرضِ والسَّماءِ.

ثم شرعَ له بعد ذكْرِ هذه التحيَّةِ والتسليمِ علىٰ مَن يستحقُّ التسليمَ خصوصًا وعمومًا أنْ **يشْهَدَ شهادةَ الحقِّ** التي بُنِيت عليها الصلاةُ، وهي حقٌّ من حقوقِها، ولا تنفعُه إلا بقرينتِها وهي **الشهادةُ لرسولِ الله بالرسالةِ**، وخُتِمتْ بها الصلاةُ، كما شرعَ أنْ تكونَ خاتمةَ الحياةِ، فمَن كانَ آخرُ كلامِه «لا إله إلا الله» دخلَ الجنَّةَ، وكذلك شرعَ للمتوضئ أنْ يختمَ وضوءَه بالشَّهادتين [(١)].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٣٤).

ثـم لمـا قضـىٰ صـلاتَه أذِنَ لـه أنْ يسـأَلَ حاجتَـهُ، وشـرعَ لـه أنْ **يتوسَّـلَ قبلَهـا بالصلاةِ علىٰ النبيِّ ﷺ**، فإنها من أعظمِ الوسائلِ بين يَدَي الدُّعاءِ؛ كما في السُّننِ عن فَضَـالَةَ بـنِ عُبَيْـدٍ أنَّ رسـولَ الله ﷺ قـال: «إذا دعـا أحـدُكم فليبـدأ بحمـدِ الله والثَّنـاءِ عليه، وليصلِّ علىٰ رسولِه، ثم ليسلْ حاجتَه»(١).

فجاءت التحيَّاتُ علىٰ ذلك، أولُها حمدُ اللهِ والثناءُ عليه، ثم الصلاةُ علىٰ رسولِه، ثم الدُّعاءُ آخرَ الصلاةِ، وأَذِنَ النبيُّ ﷺ للمصلي بعد الصلاةِ عليه أنْ يتخيَّرَ من الدُّعاءِ أعجبَه إليه(٢)، ونظيرُ هـذا ما شرعَ لمن سمِعَ المؤذنَ أنْ يقولَ كما يقولُ(٣)، وأنْ يقولَ: «رضيتُ بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمدٍ ﷺ رسولًا»(٤)، وأن يسأَلَ اللهَ لرسولِه الوسيلةَ والفضيلةَ، وأنْ يَبْعثَه المقامَ المحمودَ(٥)، ثم يصلِّي عليه(٦)، ثم يسأَلَ حاجتَه(٧).

فهذه خمسُ سننٍ في إجابة المؤذن، لا ينبغي الغفلةُ عنها.

فصل

وسرُّ الصلاةِ وروحُها ولبُّها هو إقبالُ العبدِ علىٰ الله بكلِّيتِه، فكما أنه لا ينبغي له أن يَصرِفَ وجهَه عن قِبلَةِ الله يمينًا وشمالًا، فكذلك لا ينبغي لـه أنْ يَصـرِفَ قلبَه عن ربِّه إلىٰ غيرِه؛ فالكعبةُ التي هي بيتُ اللهِ قبلةُ وجهِه وبدنِه، وربُّ البيتِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ هو قِبْلَةُ قلبِه وروحِه، وعلىٰ حسبِ إقبالِ العبدِ علىٰ اللهِ في صلاتِه يكونُ

(١) أخرجه أبو داود (١٤٨١)، والترمذي (٣٤٧٧)، والنسائي (٣/ ٤٤).
(٢) أخرجه البخاري (٨٣٥)، ومسلم (٤٠٢).
(٣) أخرجه البخاري (٦١١)، ومسلم (٣٨٣).
(٤) أخرجه مسلم (٣٨٦).
(٥) أخرجه البخاري (٦١٤).
(٦) أخرجه مسلم (٣٨٤).
(٧) أخرجه أبو داود (٥٢١)، والترمذي (٢١٢).

إقبالُ اللهِ عليه، وإذا أعرضَ أعرضَ اللهُ عنه.

وللإقبالِ في الصلاةِ ثلاثُ منازلَ: إقبالٌ علىٰ قلبِه، فيحفظُه من الوساوسِ والخطراتِ المبطلةِ لثوابِ صلاتِه أو المُنقِصَة له، وإقبالٌ علىٰ اللهِ بمراقبتِه حتىٰ كأنه يراه، وإقبالٌ علىٰ معاني كلامِه وتفاصيلِ عبوديَّةِ الصَّلاةِ ليُعطِيَها حقَّها، فباستكمالِ هذه المراتبِ الثلاثِ تكونُ إقامةُ الصلاةِ حقًّا، ويكونُ إقبالُ اللهِ علىٰ عبدِه بحسبِ ذلك.

فإذا انتصبَ العبدُ قائمًا بين يدَيْهِ فإقبالُه علىٰ قيوميَّتِه وعظمتِه، وإذا كبَّر فإقبالُه علىٰ كبريائه، فإذا سبَّحَه وأثْنَىٰ عليه فإقبالُه علىٰ سُبُحاتِ وجهِه، وتنزيهِه عما لا يليقُ به، والثَّناءِ عليه بأوصافِ كمالِه، فإذا استعاذَ به فإقبالُه علىٰ ركنِه الشديدِ وانتصارِه لعبدِه ومَنْعِه له وحفظِه من عدوِّه، فإذا تلا كلامَهُ فإقبالُه علىٰ معرفتِه من كلامِه، حتىٰ كأنه يراه ويشاهدُه في كلامِه، فهو كما قال بعضُ السَّلَفِ: «لقد تجلَّىٰ اللهُ لعبادِه في كلامِه». فهو في هذه الحالِ مُقبِلٌ علىٰ ذاتِه وصفاتِه وأفعالِه وأحكامِه وأسمائِه.

فإذا ركعَ فإقبالُه علىٰ عظمتِه وجلالِه وعزِّه، ولهذا شَرعَ له أنْ يقولَ: سبحانَ رَبِّيَ العظيمِ، فإذا رَفَعَ رأسَهُ من الركوعِ فإقبالُه علىٰ حمْدِه والثناءِ عليه وتمجيدِه وعبوديتِه له وتفردِه بالعطَاءِ والمنْعِ، فإذا سجدَ فإقبالُه علىٰ قُرْبِهِ والدُّنوِّ منه والخضوعِ له والتذلُّلِ بين يديه والانكسارِ والتملُّقِ، فإذا رَفَعَ رأسَه وجَثَا علىٰ ركبتيه فإقبالُه علىٰ غناه وجودِه وكرمِه، وشدَّةِ حاجتِه إليه، وتضرُّعِه بين يديه والانكسارِ، أنْ يغفرَ له ويرحمَه ويعافيَه ويهديَه ويرزقَه.

فإذا جلسَ في التشهُّدِ فله حالٌ آخرَ وإقبالٌ آخرَ، شِبْه حالِ الحاجِّ في طوافِ الودَاعِ، وقد استشعرَ قلبُه الانصرافَ من بين يَدَي ربِّه، وموافاةَ العلائقِ والشواغلِ

التي قطعَها الوقوفُ بين يديه، وقد ذاقَ تألُّمَ قلبِه وعذابَه بها، وباشرَ رَوْحَ القُرْبِ ونعيمَ الإقبالِ على الله وعافيتَه، بانقطاعِها عنه مدةَ الصلاةِ، ثم استشعرَ قلبُه عودَها إليه بخروجِه من حِمَى الصَّلاةِ، فهو يحملُ همَّ انقضاءِ الصَّلاةِ وفراغِها، ويقول ليتَها اتصلتْ بيوم اللِّقَاءِ، ويعلمُ أنه ينصرفُ من مناجاةِ مَنْ كلُّ السَّعادةِ في مناجاتِه، إلى مناجاةِ مَنْ الأذى والهمُّ والغمُّ والنَّكَدُ في مناجاتِه، ولا يشعرُ بهذا وهذا إلا قلبٌ حيٌّ معمورٌ بذكرِ اللهِ ومحبتِه والأنسِ به.

ولما كان العبدُ بين أمرين من ربِّه عَزَّوَجَلَّ:

- **أحدهما**: حكمُ الربِّ عليه في أحوالِه كلِّها ظاهرًا وباطنًا، واقتضاؤه منه القيامَ بعبوديةِ حكمِه، فإنَّ لكلِّ حكمٍ عبوديةً تخصُّه، أعني الحكمَ الكَوْنِيَّ القَدَرِيَّ.
- **والثاني**: فعلٌ يفعلُه العبدُ عبوديةً لربِّه، وهو مُوجَبُ حكمِه الدينيِّ الأمْرِيِّ.

وكلا الأمرينِ يُوجِبانِ تسليمَ النَّفْسِ إليه تعالى، ولهذا اشتُقَّ له اسمُ الإسلام من التسليمِ، فإنه لما أَسْلَمَ نفسَه لحكمِ ربِّه الدِّينيِّ الأمريِّ، ولحكمِه الكَوْنيِّ القَدَرِيِّ، بقيامِه بعبوديتِه فيه لا باسترسالِه معه، استحقَّ اسمَ الإسلامِ، فقيل له: مُسْلِمٌ، ولما اطمأنَّ قلبُه بذكرِه وكلامِه ومحبتِه وعبوديتِه، سَكَنَ إليه وقَرَّتْ عينُه به، فنال الأمانَ بإيمانِه = كان قيامُه بهذينِ الأمرينِ أمرًا ضروريًا له، لا حياةَ له ولا فلاحَ ولا سعادةَ إلا بهما.

ولمَّا كان ما بُلِيَ به من النفسِ الأمَّارةِ والهوى المقتضِي والطباعِ المطالِبة والشيطانِ المُغوِي، يقتضي منه إضاعةَ حظِّه من ذلك أو نقصانَه، اقتضتْ رحمةُ العزيزِ الرَّحيمِ أنْ شرَعَ له الصلاةَ مُخلِفَةً عليه ما ضاعَ منه، رادَّةً عليه ما ذهبَ، مجدِّدةً له ما أَخْلَقَ من إيمانِه، وجُعِلتْ صورتُها على صورةِ أفعالِه خشوعًا وخضوعًا وانقيادًا وتسليمًا، وأَعطَى كلَّ جارحةٍ من الجوارحِ حظَّها من العبوديَّةِ،

وجعلَ ثمرتَها وروحَها إقبالَه علىٰ ربِّه فيها بكليَّتِهِ، وجعلَ ثوابَها وجزاءَها القُرْبَ منه ونَيْلَ كرامتِه في الدُّنيا والآخرةِ، وجعلَ منزلتَها ومحلَّها الدخولَ علىٰ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ والتزيُّنَ للعرْضِ عليه، تذكيرًا بالعرْضِ الأكبرِ عليه يومَ اللِّقَاء.

وكما أنَّ الصومَ ثمرتُه تطهيرُ النَّفْسِ، وثمرَةُ الزكاةِ تطهيرُ المالِ، وثمرةُ الحجِّ وجوبُ المغفرةِ، وثمرةُ الجهادِ تسليمُ النَّفْسِ التي اشتراها سبحانه من العبادِ وجعلَ الجنةَ ثمنَها = فالصلاةُ ثمرتُها الإقبالُ علىٰ الله، وإقبالُ الله سبحانه علىٰ العبدِ، وفي الإقبالِ جميعُ ما ذُكِرَ من ثمراتِ الأعمالِ، ولذلك لم يَقُلِ النبيُّ ﷺ: جُعِلت قرةُ عيني في الصومِ ولا في الحجِّ والعمرةِ، وإنما قالَ: «وجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي في الصَّلاةِ»[١].

وتأمَّلْ قولَه: «**جُعِلتْ قُرَّةُ عَيْنِي في الصَّلاةِ**»، ولم يَقُل: «بالصَّلاةِ» إعلامًا بأنَّ عَيْنَهُ إنما تَقَرُّ بدخولِه فيها، كما تَقَرُّ عينُ المحبِّ بملابستِه لمحبوبِه، وتَقَرُّ عينُ الخائفِ بدخولِه في محلِّ أمنِه، فَقُرَّةُ العينِ بالدخولِ في الشَّيءِ أكملُ وأتمُّ من قُرَّةِ العينِ به قبلَ الدخولِ فيه.

ولما جاءَ إلىٰ راحةِ القَلْبِ من تَعِبِه ونَصَبِه قال: «يا بلالُ أرِحْنا بالصلاة»[٢] أي أقِمْها لنستريحَ بها من مقاساةِ الشَّواغِلِ، كما يستريحُ التَّعْبَانُ إذا وَصَلَ إلىٰ نُزلِه وقرَّ فيه وسَكَنَ.

وتأمَّلْ كيف قالَ: «**أرِحْنا بها**»، ولم يَقُلْ: أرِحْنا منها، كما يقولُه المتكلِّفُ بها الذي يفعلُها تكلُّفًا وغُرْمًا، فهو لمَّا امتلأَ قلبُه بغيرِها وجاءتْ قاطعةً عن أشغالِه ومحبوباتِه، وعَلِمَ أنه لا بدَّ له منها، فهو قائلٌ بلسانِ حالِه وقالِه: نصلِّي ونستريحُ

---

(١) أخرجه أحمد (٦/ ٢٩٧٢).
(٢) أخرجه أبو داود (٤٩٨٥)، وأحمد (١٠/ ٥٤٧٦).

من الصَّلاةِ، لا بها، فهذا لونٌ وذاكَ لونٌ آخرُ، فالفرْقُ بين مَن كانتِ الصَّلاةُ لجوارحِه قَيْدًا ولقلْبِه سَجْنًا ولنفْسِه عائقًا، وبين مَن كانتِ الصَّلاةُ لقلْبِه نعيمًا، ولعينِه قُرَّةً، ولجوارِحِه راحةً، ولنفْسِه بُستانًا ولذَّةً.

* **فالأول**: الصَّلاةُ سَجْنٌ لنفسِه وتقييدٌ لها عن التورُّطِ في مساقِطِ الهَلَكاتِ، وقد ينالونَ بها التكفيرَ والثَّوابَ، وينالُهم من الرَّحمةِ بحسَبِ عبوديَّتِهم لله فيها.

* **والقسم الآخر**: الصَّلاةُ بستانُ قلوبِهم، وقُرَّةُ عيونِهم، ولذَّةُ نفوسِهم، ورياضُ جوارحِهم، فهم فيها يتقلَّبونَ في النَّعيمِ؛ فصلاةُ هؤلاءِ تُوجِبُ لهم القُرْبَ والمنزلةَ من الله، ويُشاركون الأولين في ثوابِهم، ويختصُّون بأعلاه وبالمنزلةِ والقُرْبَةِ، وهي قدرٌ زائدٌ علىٰ مجرَّدِ الثَّوابِ، ولهذا يَعِدُ الملوكُ مَنْ أرضاهم بالأجرِ والتقريبِ، كما قال السحرةُ لفرعونَ: ﴿أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [الشعراء: ٤١ - ٤٢].

• **فالأول**: عبدٌ قد دخلَ الدَّارَ والسِّترُ حاجبٌ بينه وبين ربِّ الدَّارِ، فهو من وراءِ السِّتْرِ، فلذلك لم تَقرَّ عينُه، لأنه في حُجُب الشَّهواتِ، وغُيومِ الهوىٰ، ودخانِ النَّفْسِ، وبخارِ الأمانيِّ، فالقلبُ عليلٌ، والنفسُ مُكِبَّةٌ علىٰ ما تهواه، طَالبةٌ لحظِّها العاجل.

• **والآخر**: قد دَخَلَ دَارَ الملِكِ، ورُفِعَ السِّتْرُ بينه وبينه، فقرَّتْ عينُه واطمأنَّتْ نفسُه، وخَشَع قلبُه وجوارحُه، وعَبَدَ اللهَ كأنه يراه، وتجلَّىٰ له في كلامِه.

فهذه إشارةٌ ما ونُبْذةٌ يسيرةٌ جدًّا في ذَوْقِ الصَّلاةِ.

مختارات من كتاب "شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل"

[فصل: في الحكم الإلهية من تشريع الصلاة، وأنها ليست تكليفًا محضًا] [(١)]

يكفي العاقلَ البصيرَ الحيَّ القلبِ فكْرُهُ في فرعٍ واحدٍ من فروعِ الأمرِ والنَّهي وهو الصلاةُ، وما اشتملتْ عليه من الحِكَمِ الباهرةِ، والمصالحِ الباطنةِ والظاهرةِ، والمنافعِ المتَّصلةِ بالقلبِ والروحِ والبدنِ والقوىٰ، التي لو اجتمع حكماءُ العالمِ قاطبةً، واستفرغوا قواهم وأذهانَهم لما أحاطوا بتفاصيلِ حِكَمها وأسرارِها وغاياتِها المحمودةِ، بل انقطعوا كلُّهم دون أسرارِ الفاتحةِ وما فيها من المعارفِ الإلهيَّةِ، والحِكَم الربانيَّةِ، والعلومِ النافعةِ، والتوحيدِ التامِّ، والثناءِ علىٰ اللهِ تعالىٰ بأصولِ أسمائه وصفاتِه، وذكْرِ أقسامِ الخليقةِ، باعتبارِ غاياتِهم ووسائلِهم، وما في مقدماتِها وشروطِها من الحِكَمِ العجيبةِ: من تطهيرِ الأعضاءِ والثيابِ والمكانِ، وأخْذِ الزينةِ، واستقبالِ بيتِه الذي جعله إمامًا للنَّاسِ، وتفريغِ القلبِ لله، وإخلاصِ النيَّةِ، وافتتاحِها بكلمةٍ جامعةٍ لمعاني العبوديةِ، دالّةٍ علىٰ أصولِ الثَّناءِ وفروعِه، مُخْرِجةٍ من القلبِ الالتفاتَ إلىٰ ما سواه، والإقبالَ علىٰ غيرِه.

فيقومُ بقلبِه الوقوفُ بين يدي عظيمٍ جليلٍ كبيرٍ، أكبرُ من كلِّ شيء، وأجلُّ من كلِّ شيءٍ، وأعظمُ من كلِّ شيءٍ، تلاشت في كبريائه السماواتُ وما أظلَّتْ، والأرضُ وما أَقلَّتْ، والعوالمُ كلُّها، عَنَتْ له الوجوه، وخضعتْ له الرقابُ، وذلَّتْ له الجبابرةُ، قاهرٌ فوقَ عبادِه، ناظرٌ إليهم، عالمٌ بما تُكِنُّ صدورُهم، يسمعُ كلامَهم،

---

(١) (ص: ٢٢٠-٢٢٩).

ويرىٰ مكانَهم، ولا تخفىٰ عليه خافيةٌ من أمرِهم.

ثم أخذَ في تسبيحِه وحمدِه وذكرِه تبارك اسمُه، وتعالىٰ جدُّه، وتفرُّدِه بالإلهية.

ثم أَخذَ في الثناءِ عليه بأفضلَ ما يُثْنَىٰ عليه به؛ من حمْدِه وذكْرِ ربوبيته للعالَم، وإحسانِه إليهم، ورحمتِه بهم، وتمجيدِه بالمُلك الأعظمِ في اليوم الذي لا يكونُ فيه مَلِكٌ سواه، حين يجمعُ الأولين والآخرين في صعيدٍ واحدٍ، ويَدِينهم بأعمالهم.

ثم إفرادِه بنوعي التوحيدِ: توحيدِ ربوبيته استعانةً به، وتوحيدِ إلهيته عبوديةً له.

ثم سؤالِه أفضلَ مسؤولٍ، وأجلَّ مطلوبٍ علىٰ الإطلاقِ، وهو هدايةُ الصراطِ المستقيمِ الذي نَصَبه لأنبيائه ورسلِه وأتباعِهم، وجعلَهُ صراطًا موصلًا لمن سلكَهُ إليه وإلىٰ جنَّتِهِ، وأنه صراطُ مَن اختصَّهم بنعمتِه بأنْ عرَّفَهم الحقَّ، وجعلَهم مُتَّبِعِين له، دونَ صراطِ أمةِ الغَضَبِ الذين عَرفوا الحقَّ ولم يتبعوه، وأهلِ الضَّلالِ الذين ضَلُّوا عن معرفتِه واتباعِه.

فتضمَّنت تعريفَ الربِّ، والطريقَ الموصل إليه، والغايةَ بعد الوصولِ.

وتضمَّنتِ الثناءَ والدعاءَ، وأشرفَ الغاياتِ وهي العبوديةُ، وأقربَ الوسائلِ إليها وهي الاستعانةُ، مقدِّمًا فيها الغايةَ علىٰ الوسيلةِ، والمعبودَ المستعانَ علىٰ الفعلِ؛ إيذانًا بالاختصاصِ، وأنَّ ذلك لا يَصْلُحُ إلا له سبحانه.

وتضمَّنت ذِكْرَ الإلهيَّةِ والربوبيَّةِ والرحمةِ، فيُثْنَىٰ عليه ويُعبدُ بإلهيتِه، ويَخْلقُ ويَرْزقُ، ويميتُ ويُحيي، ويُدبِّرُ الملك، ويُضلُّ مَنْ يستحقُّ الإضلالَ، ويَغضبُ علىٰ مَنْ يستحقُّ الغَضَبَ؛ بربوبيتِه وحكمتِه، ويُنْعِمُ ويَرْحمُ، ويجودُ ويعفو ويغفرُ، ويهدي ويتوبُ؛ برحمته.

فلله؛ كم في هذه السُّورةِ من أنواعِ المعارفِ والعلومِ والتوحيدِ وحقائقِ الإيمانِ!

ثم يأخذُ بعد ذلك في تلاوةِ ربيعِ القلوبِ، وشفاءِ الصُّدورِ، ونورِ البصائرِ، وحياةِ الأرواحِ، وهو كلامُ ربِّ العالمين، فيحلُّ به في ما شاء من رَوْضاتٍ مُونِقاتٍ، وحدائقَ مُعْجِباتٍ، زاهيةٍ أزهارُها، مُونِقةٍ ثمارُها، قد ذُلِّلت قطوفُها تذليلًا، وسُهِّلت لمتناولها تسهيلًا، فهو يجتني من تلك الثمارِ خيرًا يُؤمر به، وشرًّا يُنهىٰ عنه، وحكمةً وموعظةً، وتبصرةً وتذكرةً وعبرةً، وتقريرًا لحقٍّ، ودحضًا لباطلٍ، وإزالةً لشبهةٍ، وجوابًا عن مسألةٍ، وإيضاحًا لمُشكِلٍ، وترغيبًا في أسبابِ فلاحٍ وسعادةٍ، وتحذيرًا من أسبابِ خسرانٍ وشقاوةٍ، ودعوةٍ إلىٰ هدىً، ورَدٍّ عن ردىً، فينزلُ علىٰ القلوبِ نزولَ الغيثِ علىٰ الأرضِ التي لا حياةَ لها بدونه، ويَحِلُّ منها مَحلَّ الأرواحِ من أبدانِها.

فأيُّ نعيمٍ، وقرّةِ عينٍ، ولذةِ قلبٍ، وابتهاجٍ وسرورٍ لا يحصلُ له في هذه المناجاةِ! والربُّ تعالىٰ يستمعُ لكلامِه جاريًا علىٰ لسانِ عبدِه، ويقولُ: «حَمِدني عبدي، أثنىٰ عليَّ عبدي، مجَّدَني عبدي»[(١)].

ثم يعودُ إلىٰ تكبيرِ ربِّه عَزَّوَجَلَّ، فيجدِّدُ به عهدَ التَذْكِرَةِ، كونه أكبرَ من كلِّ شيءٍ بحقِّ عبوديتِه، وما ينبغي أنْ يُعامَل به.

ثم يركعُ حانيًا له ظهرَه؛ خضوعًا لعظمتِه، وتذلُّلًا لعزَّتِه، واستكانةً لجبروتِه، مسبِّحًا له بذكْرِ اسمِه العظيمِ، فنَزَّهَ عظمتَه عن حالِ العبْدِ وذلِّه وخضوعِه، وقابَلَ تلك العظمةَ بهذا الذُّلِ والانحناءِ والخضوعِ، قد تطامنَ وطأطأَ رأسَهُ، وطوىٰ

---

(١) أخرجه مسلم (٣٩٥) بتمامه.

ظهْرَهُ، وربُّه فوقَه يشاهدُه، ويرىٰ خضوعَه وذلَّه، ويسمعُ كلامَه، فهو ركنُ تعظيمٍ وإجلالٍ، كما قال ﷺ: «أما الرُّكوعُ فعظِّموا فيه الربَّ»[(١)].

ثم عادَ إلىٰ حالِه من القيامِ حامدًا لربِّه، مثنيًا عليه بأكملِ محامدِه وأجمعِها وأعمِّها، مثنيًا عليه بأنه أهلُ الثناءِ والمجْدِ، ومعترفًا بعبوديتِه، شاهدًا له بتوحيدِه، وأنه لا مانعَ لما أعطىٰ، ولا معطيَ لما منعَ، وأنه لا ينفعُ أصحابَ الجُدُودِ والأموالِ والحظوظِ جُدُودُهم عنه ولو عظُمتْ.

ثم يعودُ إلىٰ تكبيرِه، ويخرُّ له ساجدًا علىٰ أشرفِ ما فيه وهو الوجه، فيعفِّرُه في الترابِ ذُلًّا بين يديه ومسكنةً وانكسارًا، وقد أخذَ كلُّ عضوٍ من البدنِ حظَّه من هذا الخضوعِ، حتىٰ أطرافُ الأناملِ ورؤوسُ الأصابعِ، ونُدِبَ له أنْ يسجدَ معه ثيابُه وشعرُه فلا يكفُّه، وألَّا يكونَ بعضُه محمولًا علىٰ بعضٍ، وأنْ يباشرَ الترابَ بجبهتِه، وينالَ ثِقْلُ وجهِهِ المُصَلَّىٰ، ويكونُ رأسُه أسفلَ ما فيه تكميلًا للخضوعِ والتذلُّلِ لمن له العزُّ كلُّه والعظمةُ كلُّها، وهذا أيسرُ اليسيرِ من حقِّه علىٰ عبدِه، فلو دام كذلك من حينِ خُلِقَ إلىٰ أنْ يموتَ لما أدَّىٰ حقَّ ربِّه عليه.

ثم أُمِرَ أنْ يسبِّحَ ربَّه الأعلىٰ، فيذكرُ علوَّه سبحانه في حالِ سفولِه هو، وينزِّهُه عن مثلِ هذه الحالِ، وأنَّ مَنْ هو فوقَ كلِّ شيءٍ، وعالٍ علىٰ كلِّ شيءٍ يُنَزَّه عن السُّفولِ بكلِّ معنىٰ، بل هو الأعلىٰ بكلِّ معنىً من معاني العُلُوِّ.

ولما كان هذا غايةَ ذلِّ العبدِ وخضوعِه وانكسارِه؛ كان أقربَ ما يكون الربُّ منه في هذه الحال، فأُمِرَ أنْ يجتهدَ في الدعاءِ؛ لقربه من القريبِ المجيبِ، وقد قال تعالىٰ: ﴿لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴾ [العلق:١٩].

---

(١) أخرجه مسلم (٤٧٩).

وكان الركوعُ كالمقدمةِ بين يدي السُّجودِ والتوطئةِ له، فينتقلُ من خضوعٍ إلىٰ خضوعٍ أكملَ وأتمَّ منه، وأرفعَ شأنًا.

وفُصِل بينهما بركنٍ مقصودٍ في نفسِه، يجتهدُ فيه في الحمدِ والثَّناءِ والتَّمجيدِ، وجُعِل بين خضوعين: خضوعٍ قبلَه، وخضوعٍ بعدَه، وجُعِل خضوعُ السجودِ بعد الحمْدِ والثَّناءِ والمجْدِ، كما جُعِل خضوعُ الركوعِ بعدَ ذلك.

فتأمَّلْ هذا الترتيبَ العجيبَ، وهذا التنقُّلَ في مراتبِ العبوديَّةِ، كيف ينتقلُ من مقامِ الثَّناءِ علىٰ الربِّ بأحسنِ أوصافِه وأسمائه وأكملِ محامدِه إلىٰ منزلةِ خضوعِه وتذلُّلِه لمن له هذا الثناءُ، ويستصحبُ في مقامِ خضوعِه ثناءً يناسبُ ذلك المقامَ، ويليقُ به، فيذكرُ عظمةَ الرَّبِّ في حالِ خضوعِه، وعلوَّه في حالِ سفولِه.

ولما كانَ أشرفَ أذكارِ الصلاةِ القرآنُ شُرِع في أشرفِ أحوالِ الإنسانِ، وهي هيئةُ القيامِ التي قد انتصَبَ فيها قائمًا علىٰ أحسنِ هيئةٍ، ولما كانَ أفضلَ أركانِها الفعليَّةِ السجودُ شُرِع فيها بوصفِ التَّكْرارِ، وجُعِل خاتمةَ الركعةِ وغايتَها التي انتهت إليها، فطابَقَ افتتاحُ الركعةِ بالقرآنِ واختتامُها بالسجودِ أولَ سورةٍ افْتُتِح بها الوحيُ، فإنها بُدِئت بالقراءةِ، وخُتِمت بالسجودِ.

وشُرِع له بين هذينِ الخضوعينِ أنْ يجلسَ جِلْسةَ العبيدِ، ويَسْأَلُ ربَّه أنْ يغفرَ له، ويرحمَه، ويرزقَه، ويهديَه، ويعافيَه، وهذه الدعواتُ تجمعُ له خيرَ دنياه وآخرتِه.

ثم شُرِع له تكرارُ هذه الركعةِ مرةً بعدَ مرةٍ، كما شُرِع تكرارُ الأذكارِ والدعواتِ مرةً بعدَ مرةٍ؛ ليستعدَّ بالأولِ لتكميلِ ما بعدَه، ويَجبرَ بما بعدَه ما قبلَه، ولِيشْبعَ القلبُ من هذا الغذاءِ، ولِيأخذَ داؤُهُ نصيبَهُ وافرًا من الدواءِ ليقاومَه؛ فإنَّ منزلةَ الصلاةِ من القلبِ منزلةَ الغِذاءِ والدَّواءِ، فإذا تناولَ الجائعُ الشديدُ الجوعِ من

الغذاءِ لقمةً أو لقمتين كان غناؤها عنه وسدُّها من جوعِه يسيرًا جدًّا، وكذلك المرضُ الذي يحتاجُ إلىٰ قدْرٍ معيَّنٍ من الدَّواءِ، إذا أخذَ منه المريضُ قيراطًا من ذلك لم يَزُلْ مرضُه بالكليَّةِ، وأزالَ بحسَبِه، فما حصلَ الغذاءُ أو الشفاءُ للقلبِ بمثلِ الصلاةِ، وهي لصحتِه ودوائِه بمنزلةِ غِذاءِ البَدنِ ودوائِه.

ثم لما أكملَ صلاتَه شُرِع له أنْ يَقْعُدَ قِعْدَةَ العبدِ الذَّليلِ المسْكينِ لسيدِه، ويُثني عليه بأفضلِ التحيَّاتِ، ويسلِّمُ علىٰ مَنْ جاءَ بهذا الحظِّ الجزيلِ، وما نالتْهُ الأمةُ علىٰ يديْهِ، ثم يُسَلِّمُ علىٰ نفسِه وعلىٰ سائرِ عبادِ اللهِ المشاركينَ له في هذه العبوديَّةِ، ثم يتشهَّدُ شهادةَ الحقِّ، ثم يعودُ فيُصلي علىٰ مَنْ علَّمَ الأمةَ هذا الخيرَ ودلَّهم عليه، ثم شُرِع له أنْ يسألَ حوائجَه، ويدعو بما أحبَّ ما دامَ بين يدي ربِّه مقبلًا عليه، فإذا قضىٰ ذلك أُذِنَ له في الخروجِ منها بالتسليمِ علىٰ المشاركينَ له في الصلاةِ.

هذا إلىٰ ما تضمَّنَتْهُ من الأحوالِ والمعارفِ من أولِ المقاماتِ إلىٰ آخرِها، فلا تجدُ منزلةً من منازلِ السَّيْرِ إلىٰ اللهِ تعالىٰ، ولا مقامًا من مقاماتِ العارفينَ إلا وهو في ضِمْنِ الصَّلاةِ.

وهذا الذي ذكرناه من شأنِها كقطرةٍ من بَحْرٍ، فكيف يُقالُ: إنَّها تكليفٌ مَحْضٌ، لم يُشرَعْ لحكمةٍ ولا لغايةٍ قصَدَها الشارعُ، بل هي تَعَبٌ مَحْضٌ، وكُلْفَةٌ ومَشَقَّةٌ مُسْتَنِدَةٌ إلىٰ مَحْضِ المشيئةِ، لا لغرضٍ ولا لفائدةٍ البتَّة، بل مجردُ قهرٍ وتكليفٍ، وليست سببًا لشيءٍ من مصالحِ الدُّنيا ولا الآخرةِ؟!

ثم تأمَّلْ أبوابَ الشريعةِ ووسائلَها وغاياتِها، كيف تجدُها مشحونةً بالحِكَم المقصودةِ، والغاياتِ الحميدةِ التي شُرِعَتْ لأجلِها، التي لولاها لكانَ الناسُ كالبهائمِ، بل أسوأُ حالًا.

فكم في الطَّهارةِ من حِكْمةٍ ومنفعةٍ للقلبِ والبدنِ، وتفريحٍ للقلبِ، وتنشيطٍ للجوارحِ، وتخفيفٍ من أحمالِ ما أوجبَتْهُ الطبيعةُ، وإلقاءٍ عن النفسِ من دَرَنِ المخالفاتِ، فهي منظِّفَةٌ للقلبِ والرُّوحِ والبَدَنِ.

وفي غُسْلِ الجنَابةِ من زيادةِ التقويَةِ، والإخلافِ على البَدَنِ نظيرَ ما تحلَّلَ منه بالجنابةِ ما هو من أنفعِ الأمورِ.

وتأمَّلْ كونَ الوضوءِ في الأطْرافِ التي هي محلُّ الكسْبِ والعملِ، فجُعِل في الوجهِ الذي فيه السمعُ والبصرُ والكلامُ والشَّمُّ والذَّوْقُ، وهذه الأبوابُ هي أبوابُ المعاصي والذنوبِ كلِّها، فمنها يُدخَل إليها، ثم جُعِل في اليدينِ وهما طرفاه وجناحاه اللذانِ بهما يبطشُ ويأخذُ ويعطي، ثم في الرِّجْلَينِ اللتين بهما يمشي ويسعىٰ.

ولما كانَ غَسْلُ الرأسِ بماءٍ فيه أعظمُ حرجٍ ومشقَّةٍ جُعِل مكانه المسْحُ، وجُعِل ذلك مخرجًا للخطايا من هذه المواضعِ؛ حتىٰ يخرجَ مع قَطْرِ الماءِ من شَعْرِه وبَشَرِه، كما ثَبتَ عن النبي ﷺ من حديثِ أبي هريرةَ قال: «إذا تَوَضَّأ العبدُ المسلمُ أو المؤمنُ فَغَسَلَ وجْهَهُ خَرَجَ من وجهِه كلُّ خطيئةٍ نَظَرَ إليها بعيْنَيْهِ مع الماءِ أو مع آخرِ قَطْرِ الماءِ، فإذا غَسَلَ يَدَيْهِ خَرَجَ من يَدَيْهِ كلُّ خطيئةٍ كان بَطَشَتْهَا يَداه مع الماءِ، أو مع آخرِ قَطْرِ الماءِ، فإذا غَسَلَ رِجْلَيْهِ خَرَجَتْ كلُّ خطيئةٍ مَشَتْها رجلاه مع الماءِ، أو مع آخرِ قَطْرِ الماءِ، حتىٰ يَخْرجَ نقيًا من الذُّنوبِ» رواه مسلم[(١)].

وفي «صحيح مسلم» أيضًا عن عثمان بن عفان قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ

(١) برقم (٢٤٤).

تَوَضَّأ فَأَحْسَنَ الوضوءَ خرجتْ خطاياه حتىٰ تَخرجَ من تحت أظْفَارِه»[(١)] فهذا من أجلِّ حِكَمِ الوضوءِ وفوائدِه.

وقال نُفَاةُ الحِكْمةِ: إنه تكليفٌ مَحْضٌ، ومَشَقَّةٌ وعناءٌ، لا مصلحةَ فيه، ولا حِكْمةَ شُرِع لأجلِها!

ولو لم يكن في مصلحتِه وحكمتِه إلا أنه سِيْماء هذه الأمةِ وعلامتِهم في وجوهِهم وأطرافِهم يومَ القيامةِ بين الأممِ ليست لأحدٍ غيرِهم، ولو لم يكن فيه من المصلحةِ والحكمةِ إلا أنَّ المتوضِّئَ يُطَهِّرُ بدنَه بالماءِ، وقلبَه بالتوبةِ، ليستعِدَّ بذلك للدخولِ علىٰ ربِّه ومناجاتِه، والوقوفِ بين يديه طاهرَ البدنِ والثوبِ والقلبِ، فأيُّ حِكْمةٍ ورحمةٍ ومصلحةٍ فوقَ هذا؟!

ولما كانت الشهوةُ تجري في جميعِ البدنِ، حتىٰ إنَّ تحت كلِّ شعْرةٍ شَهْوةٍ؛ سَرَىٰ غُسْلُ الجنابةِ إلىٰ حيث سرتِ الشهوةُ، كما قال ﷺ: **«إنَّ تحتَ كلِّ شعْرةٍ جنابةً»**[(٢)]، فأمرَ أنْ يُوصِلَ الماءَ إلىٰ أصلِ كلِّ شعْرةٍ، فتبْرُدُ حرارةُ الشَّهوةِ، فتسكنُ النفسُ، وتطمئنُّ إلىٰ ذكرِ اللهِ وتلاوةِ كلامِه، والوقوفِ بين يديه.

فواللهِ؛ لو أنَّ أبُقْراط ودونه أَوْصَوْا بمثلِ هذا لخضعَ أتباعُهم لهم فيه، وعظَّموهم عليه غايةَ التعظيمِ، وأبْدَوْا له من الحِكَمِ والفوائدِ ما قدروا عليه.

ثم لما كانَ العبدُ خارجَ الصلاةِ مُهْمَلَ جوارِحِه، قد أسامَها في مراتعِ الشهواتِ والحظوظِ= أُمِر بعبوديةٍ تَجْمعُ جوارحَه كلَّها علىٰ ربِّه، وتأخذُ بحظِّها من عبوديتِه، فيسلِّمُ قلبَه وبدنَه وجوارحَه وحواسَّه وقواه لربِّه عَزَّوَجَلَّ، واقفًا بين

---

(١) برقم (٢٤٥).

(٢) أخرجه أبو داود (٢٤٨)، والترمذي (١٠٦)، وابن ماجه (٥٩٧).

يديه، مُقبِلًا بكلِّه عليه، مُعْرِضًا عمَّا سواه، متنصِّلًا إليه من إعراضِه عنه، وجنايتِه علىٰ حقِّه.

ولما كان هذا طبَعه ودأبَه أُمِر أنْ يُجدِّدَ هذا الرجوعَ إليه والإقبالَ عليه وقتًا بعد وقتٍ؛ لئلا يطولَ عليه الأمدُ فينسىٰ ربَّه، وينقطعَ عنه بالكليَّةِ، فكانت الصلاةُ من أعظمِ نِعَمِ اللهِ عليه، وأفضلِ هداياه التي ساقَها إليه، فأبىٰ نفاةُ الحكمةِ إلا جَعْلها كُلْفةً وعَنَاءً وتعبًا، لا لحكمةٍ ولا لمصلحةٍ البتَّة إلا مجردَ القهرِ والمشيئةِ!

وقد فُتِحَ لك البابُ فَسُقِ الشريعةَ كلَّها من أولِها إلىٰ آخرِها هذا المساقَ، واستدِلَّ بما ظَهَرَ لك علىٰ ما خَفِيَ عنك، ولعلَّ الحكمةَ فيما لم تعلَمْهُ أعظمُ منها فيما عَلِمْتَهُ؛ فإنَّ الذي عَلِمْتَهُ علىٰ قَدْرِ عَقْلِكَ وفَهْمِكَ، وما خَفِيَ عنك فهو فوقَ عقْلِكَ وفَهْمِكَ، ولو تتبعنا تفصيل ذلك لجاء عدَّةَ أسفارٍ، فيُكتَفىٰ منه بأدنىٰ تنبيهٍ، واللهُ المستعانُ.

فهرس الموضوعات



محتويات الحقيبة

1. مختصر الداء والدواء
2. مختصر الوابل الصيب ورافع الكلم الطيب
3. مختصر حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح
4. مختارات من كتاب الصلاة
5. مختصر الفوائد
6. مختصر عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين
7. مختصر إغاثة اللهفان في مصايد الشيطان
8. خلاصة مدارج السالكين في منازل السائرين
9. مختصر طريق الهجرتين وباب السعادتين
10. مختصر زاد المعاد في هدي خير العباد
11. مختصر جلاء الأفهام في فضل الصلاة والسلام على محمد خير الأنام ﷺ
12. مختصر تحفة المودود بأحكام المولود
13. مختصر التبيان في أيمان القرآن
14. مختصر مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة
15. مختصر روضة المحبين ونزهة المشتاقين
16. مختارات من بدائع الفوائد
17. مختصر كتاب الروح
18. ثلاث رسائل لابن القيم

للطباعة لدُور النشر
والجهات المانحة

مطابع الفسطاط-واتساب:
00201222560045

مشروع مختصرات
كُتُب السَّلف

وقفُ من المختصِر
لهُ ولوَالدَيه وزوْجَته وذُرِّيَّته